الصحبة وآدابها في ضوء القرآن الكريم

بحث مقدم من:

د/ أمل أحمد غلوش

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات ـ القاهرة

جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من كان خلقه، وربيع قلبه، ونور صدره القرآن الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا... أما بعد.

فقد أنزل القرآن الكريم في مجتمع يحيط بأفراده التمزق، والضياع والفوضى الأخلاقية، والأزمات النفسية، والفراغ الروحانى، والتجمد العاطفى الذى يدفع الرجل لوأد ابنته.

وتمتاز علاقاته بالأخرين بالأنانية، والكراهية، والبغضاء والعداوة.

فأنار للفرد طريقًا يلبى كل احتياجاته العقلية، والروحانية، والجسدية، والنفسية، والدينية والدنيوية دون أن يطغى جانب على آخر، وربطه بالآخرين من حوله برباط وثيق لا تفتك به الأزمات، أو تؤثر فيه النعرات والعصبيات.

ذلك أن الإسلام قرر أن الناس جميعا جنس واحد، من نفس واحد، وأنهم متساوون أمام الله، متكافئون في الحقوق والتبعات من غير استثناءات أو امتيازات، وأن الإسلام عقد بينهم، يبين لكل فرد حقه وواجبه.

لقد تحدث القرآن عن علاقة الفرد بوالديه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾[1] وبين المرء وزوجه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وبينه وبين ولده: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

ثم انطلق بالفرد نحو أسرته الكبيرة فحثه على صلة الرحم فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[4].

---

(١) من الآية ٨ سورة العنكبوت ، ١٥ سورة الأحقاف ، ١٤ سورة لقمان .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢١ .

(٣) سورة لقمان ، الآية ١٣ .

(٤) سورة النساء من الآية ١ .

وأبحر به في المجتمع الواسع المفتوح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

وقد امتاز القرآن الكريم في حديثه عن العلاقات الاجتماعية بمزايا عديدة من أبرزها:

(١) **الدقة:** فهو يحدد كل علاقة بمعالم واضحة لا تتداخل مع أخرى فالعلاقة الزوجية غير علاقة الصحبة.

(٢) **الشمول والاحاطة:** فلم يترك علاقة تتطرأ في المجتمع البشرى إلا وتحدث عنها.

(٣) **التوازن:** لم يجعل علاقة تطغى على علاقة أخرى فوازن بين المثالية والواقعية، وبين العقلانية والوجدانية.

(٤) **الايجابية:** فهو يعالج المشاكل برؤية وبعد نظر حتى يقضى عليها، ويفتح مجالات للتشابك والتعاضد والتلاقى.

وقد بقى المجتمع الإسلامى على ما أسسه القرآن من دعائم، وما أقامه من أركان ينعم بالإخاء والمساواة، والمحبة، والتعاون حتى ابتعد المسلمون عن دينهم فأخذت عرى المجتمع تنفصم عروة عروة، وعم فيه التنافس والتناحر، والبغضاء والأنانية.

فرأيت أن أتناول احدى هذه العلاقات الاجتماعية بالتفصيل أملا فى عودة العلاقات إلى سابق مجدها فاخترت موضوع (الصحبة وآدابها في القرآن الكريم)، وجعلته موضوعا لهذه الدراسة راجية من وراء دراسية ما يلى:

(١) أن أعيش مع القرآن الكريم، وأوضح بعض معانيه عسى أن أظفر بثواب من عند ربى الكريم.

(٢) إظهار تداخل الصحبة الطيبة مع كثير من العلاقات الأسرية والاجتماعية حيث يضفى وجودها جوًا من المودة والألفة.

(٣) بيان كيفية الاستفادة من تأثر السلوك الإنسانى بها، إذ يعد الأصحاب من أكثر العوامل تأثيرًا على سلوك الفرد.

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

(٤) تعريف الناس بأوليات العلاقة الاجتماعية القائمة على تبادل الحقوق والواجبات، والبعد عن الأنانية، أو التفكير في الذات فقط.

(٥) لعلى بهذا أسد فراغا في المكتبة القرآنية حيث شجعتنى ندرة الكتابة حسب علمى في هذا الموضوع على التطرق له (على هذا النحو هنا)، أو أجدد وأجمع ما قد يكون موجودًا أو متفرقا في ذلك، وهذا أو ذاك من الأساس في الكتابة في العلم مع ما يفتح الله به عليّ فيه.

وقد خرج البحث مكونا من مقدمة وفصلين وخاتمة، وذلك على النحو التالى:

أما المقدمة فإنها تشمل التعريف بالموضوع وأهميته، ومنهج الدراسة فيه، وأهم محتوياته:

وأما الفصل الأول: فإنه يتناول التعريف بالصحبة:

ويضم أربعة مباحث هى:

▪ **المبحث الأول:** في تعريف لفظ الصحبة وما يقاربها من ألفاظ:

ويضم مطلبين:

ـ **المطلب الأول:** تعريف الصحبة فى اللغة وأقوال المفسرين.

ـ **المطلب الثانى:** الألفاظ المقاربة للصحبة.

▪ **المبحث الثانى:** في عوامل نشأة الصحبة:

ويضم ثلاثة مطالب هى:

ـ **المطلب الأول:** الالتقاء والملازمة في المكان.

ـ **المطلب الثانى:** الاشتراك في العمل.

ـ **المطلب الثالث:** القرابة.

▪ **المبحث الثالث:** ويكون في أسس اختيار الصاحب:

ويضم ثلاثة مطالب:

ـ **المطلب الأول:** العقل.

ـ **المطلب الثانى:** سلامة العقيدة "الإيمان".

ـ **المطلب الثالث:** استقامة السلوك.

ـ **المطلب الرابع:** أسس الاختيار فى الميزان.

■**المبحث الرابع:** في صور الصحبة في القرآن الكريم:

ويضم أربعة مطالب هى:

ـ **المطلب الأول:** صحبة الأنبياء.

ـ **المطلب الثانى:** الصحبة الأسرية.

ـ **المطلب الثالث:** الصحبة العلمية.

ـ **المطلب الرابع:** الصحبة بمعنى الرفقة.

الفصل الثانى: أدب الصحبة:

ويضم خمسة مباحث:

■**المبحث الأول:** النصح الأمين.

■**المبحث الثانى:** أداء الحقوق الأصلية.

■**المبحث الثالث:** التعاون على البر والتقوى.

■**المبحث الرابع:** حسن الخلق.

■**المبحث الخامس:** طيب الكلام.

أما الخاتمة فقد ذكرت فيها أبرز النتائج التى توصل إليها البحث.

وقد سرت في هذا البحث على المنهج التالى:

(١) تناولت عناصر الموضوع من خلال الآيات القرآنية متبعة المنهج الاستقرائى[١].

(٢) فسرت الآيات تفسيرا يتلائم مع العنوان المختار لها واستعنت في ذلك بالتفسير التحليلى من أمهات كتب التفسير، وهو منهج وصفى تحليلى.

(٣) التزمت بالموضوعية في الدراسة فلم أخلط موضوعا بغيره، ولم آت بآية في غير موضعها.

(٤) استعنت بالأحاديث النبوية التى تساعد على فهم آيات الصحبة وخرجتها من مصادرها الأصلية.

(٥) استعنت في بعض المواضع بكتب التنمية البشرية لإظهار كيفية تأصيل الصحبة.

(١) وهو تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية عامة ، الموسوعة العربية الميسرة ص١٤٣ بإشراف محمد شفيق غربال . دار القلم .

(٦) شرحت الألفاظ الغامضة، وترجمت للإعلام غير المشهورين الذين تساعد ترجمتهم على توضيح سياق الكلام وإثراء مادته.

ولقد بذلت جهدى، وحاولت الخير ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله... واسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنى في عملى هذا وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم إنه ولى ذلك، والقادر عليه آمين.

الفصل الأول
التعريف بالصحبة

ويضم أربعة مباحث:

- **المبحث الأول:** تعريف لفظ الصحبة وبيان ما يقاربها من ألفاظ.
- **المبحث الثاني:** عوامل نشأة الصحبة.
- **المبحث الثالث:** أسس اختيار الصاحب.
- **المبحث الرابع:** صور الصحبة في القرآن الكريم.

المبحث الأول
تعريف لفظ الصحبة وما يقاربها من ألفاظ

تحتاج الصحبة في تعريفها جامعا يجمع كل خصالها وسماتها، ويخرج ما يلتقى بها، أو يقاربها إلى ما يلى:

(١) تعريفها في اللغة.

(٢) تعريفها عند المفسرين.

(٣) تحديد الألفاظ المقاربة لها وتمييزها عنها.

وبيان كل ذلك من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول
تعريف الصحبة في اللغة وأقوال المفسرين

أولاً: تعريف الصحبة لغة:

ترجع كلمة الصحبة إلى مادة الصاد، والحاء والباء، وقد عرفها اللغويون بتعريفات عدة.

يقول ابن منظور: "صَحِبَه، يَصْحَبُه، صُحْبَةً بالضم، وصَاحبةً بالفتح، وصاحبه: عاشره، وَالصَّحْبُ جمع صاحب، والصاحب المعاشر، واصطحب الرجلان: تصاحبا واصطحب القوم: صحب بعضهم بعضا"(١).

ويقول ابن فارس: "الصاد والحاء والباء يدل على **مقارنة الشئ ومقاربته** من ذلك الصاحب، والجمع الصَّحْب كما يقال: راكب وركب، ومن الباب: أصحب فلان: إذا انقاد، وأُصْحِبَ الرجل: إذا بلغ ابنه، وكل شئ **لازم** شيئا فقد استصحبه، ويقال: أصحب الماء إذا علاه الطحلب"(٢).

ويقول الفيروز آبادى: "صحبه كسمعه صحابة وصُحبة: عاشره وهم أصحاب، وأصحايب، وصحبان، صحاب، وصحابة وصاحبة، وصحب، واستصحبه دعاه إلى الصحبة ولازمه... وأصحبته الشئ جعلته له صاحبا"(٣).

ومما جاء في التعريفات اللغوية للصحبة نجد أنها تدور حول ثلاث معان:

المعاشرة ــ المقارنة ــ الملازمة

وهى معان ثلاثة تلتقى في معنى عام، ويختلف كل منها في معنى خاص.

ثانيًا: تعريف الصحبة في أقوال المفسرين:

يقول القرطبى: "الصحبة: الاقتران بالشئ في حالة ما، في زمان ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهى كمال الصحبة"(٤).

---

(١) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور مادة "صحب" تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ، دار المعارف.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن زكريا تحقيق عبد السلام محمد هارون مطبعة الخانجى بالقاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٤٠٢ ــ ١٩٨١ .

(٣) القاموس المحيط للفيروز آبادى مادة "صحب"، ط/ مؤسسة الحلبى .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٣٤٠/١ ، ط/ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٧ الطبعة الثالثة .

ويقول البقاعى: "الصاحب: الملاصق المخالط في أمر من الأمور الموجبة لامتداد العشرة"(١).

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعى ٢٥٥/٢ الطبعة الأولى ١٩٧٦ دائرة المعارف العثمانية .

المطلب الثانى
الألفاظ المقاربة للصحبة

من التعريفات السابقة للصحبة يتبين أن لها عدة معان تعبر عنها وتؤدى بعضا من مفاهيمها وأبرز هذه المعانى المستخلصة من التعريفات: الملازمة، العشرة، الخلطة، المقارنة، وأضيف إليهم لفظ (مع) فقد تستعمل في القرآن الكريم في إفادة معنى الصحبة.

وسأتناول هذه الألفاظ بالدراسة حتى ينكشف ما بينها وبين الصحبة من تقارب من خلال النقاط التالية:

أولاً: الملازمة:

الملازمة لغة من لزم يلزم لزوما.

يقول ابن منظور: "اللزوم: معروف، ورجل لُزمة: يلزم الشئ فلا يفارقه"(١).

وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾(٢) أى يكون نزول العذاب لازما لا يفارقكم(٣).

وقد روعى هذا المعنى في الصحبة فترتب على ذلك التوسع في اطلاق لفظ صاحب على كل شئ يلازم الآخر "إنسانا أو حيوانا أو مكانا أو زمانا"(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٥).

يقول ابن الجوزى: "أصحاب النار: هم سكانها سموا بذلك لصحبتهم إياها بالملازمة"(٦). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٧).

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة "لزم" .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٧٧ .

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٧٧/١١ ، دار الحديث ، والتحرير والتنوير ٦٨/١٩ .

(٤) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب الغزيز للفيروز آبادى ٣٨٦/٣ المكتبة العلمية ــ بيروت ــ المفرادات في غريب القرآن للراغب ص٢٧٥ ، تحقيق محمد سيد كيلانى دار المعرفة بيروت .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٣٩ .

(٦) زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزى ٥٩/١ ، دار الفكر .

(٧) سورة الحجر ، الآية ٨٠ .

"والحجر: اسم واد كان يسكنه ثمود"(١). ولكنهم لما لزموا سكناه زمانا طويلا سموا أصحاب الحجر.

والملازمة في الصحبة بين الناس لا تعنى التواصل الدائم، وعدم الانفكاك، فإن هذا أمر لا تؤيده المشاهدة وواقع الحال من تغير الظروف والأحوال، وسنَّة الفراق، وإنما يقصد بهذا اللفظ: كثرة الملازمة وطول اللبث والمقام، وتداخل الأحوال والمصالح مما يولد تبادل الصفات ويبقى تقاربا وتأثرًا حتى ولو افترق الصاحبان.

يقول الفيروز آبادى: "الصاحب: الملازم، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته"(٢).

ويقول ابن عاشور: "الصاحب الذى يصحب غيره أى يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها"(٣).

ثانيًا: العشرة:

وهى لغة من عاشر يعاشر معاشرة.

جاء في لسان العرب: "العشرة لغة: المخالطة، عاشرته معاشرة، واعتشروا، وتعاشروا تخالطوا"(٤).

ومرجع اللفظ إلى الرقم عشرة الذى يعد "عددًا كاملا"(٥). فيقال: عشرت القوم تعشيرًا إذا كانوا تسعة فجعلتهم عشرة، وعشرت الناقة: صارت عشراء، وكانت العرب تقول: "إذا أراد الرجل دخول قرية يخاف وباءها عشر على بابها فلا يضره"(٦).

"ومنه العشيرة وهى أهل الرجل وأقاربه الذين يتكثر بهم ويصيرون له بمنزلة العدد

---

(١) مفاتيح الغيب للرازى ٤٤٩/١٨ مكتبة الإيمان بالمنصورة ، نشر / دار الغد الغربى الطبعة الأولى ١٤١٣ــ١٩٩٢م .

(٢) بصائر ذوى التمييز ٣٨٦/٣ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٤/٢٩ دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٢٩٥٥/٤ .

(٥) المفرادات ص٣٣٥ .

(٦) أساس البلاغة للزمخشرى ١١٨/٢ تقديم : د/ محمود حجازى إصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة .

الكامل"[1].

ويمكن تعريف العشرة اصطلاحا بأنها: المخالطة والممازجة في المواقف المختلفة، وتبادل المنافع والمصالح، والمشاركة في الضراء والسراء بالتقوى والتناصر، والتعاضد مما يولد بين العشراء تكاملا يغنيهم عن غيرهم.

ولذا ذم سبحانه وتعالي العشير الذى يضر معاشره يقول الله تعالى: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾[2].

وهذا المعاضد المناصر قد يكون شخصا من أقارب الرجل، وقد يكون من غير الأقارب ولكنه ينفعه كما هو القريب أو أكثر، ولذا تنوعت عبارات المفسرين في تحديد معنى العشير.

يقول ابن عطية: "القريب المعاشر في الأمور"[3].

ويقول أبو حيان: "العشير: الصاحب المخالط"[4].

وهذه العشرة يتولد عنها صحبة إذا حدث تلازم وطول لبث بين العشيرين كما هو الحال مع الزوج والزوجة والوالدين والأولاد.

يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[5]. "أمر للجميع، لأن لكل واحد عشرة، زوجا كان أو وليا، ولكن المتلبس في الأغلب بهذا الأمر الأزواج"[6].

وعبر سبحانه عن العشرة بين الأزواج بالصحبة في آية أخرى فقال عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾[7].

(١) المفرادات للراغب ص٣٣٥ .

(٢) سورة الحج ، الآية ١٣ .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١١٠/٤ . تحقيق عبد السلام عبد الشافى ط/ محمد على بيضون دار الكتب العلمية ط . الأولى ٢٠٠١م .

(٤) البحر المحيط لأبى حيان ٣٥٧/٦ ، ط/ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ــ الرياض .

(٥) سورة النساء ، الآية ١٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٢٨/٢ .

(٧) سورة عبس ، الآيات ٣٤ ــ ٣٦ .

وفى مقابل هذا العشير القريب الصاحب، قد تحدث صحبة وعشرة من غير قرابة، كما فعل الأنصار مع رسول الله ﷺ عندما آووه ونصروه وصاحبوه من غير رحم ولا نسب.

ثالثا: المخالطة:

من الألفاظ المقاربة للصحبة الخلطة، وهى لغة: الامتزاج والتشابك من خلط الشئ يخلطه خلطا وخلطة.

يقول الزمخشرى: "خلط الماء بالشراب، وخالطه الماء وخلطه واختلط به في الجمع أخلاط الدواء، ومن المجاز: خالطت فلانا وهو خليطى... وهو خليطه في التجارة وفى الغنم أى شريكه، واختلط القوم في الحرب وتخالطوا: تشابكوا ورجل خلط: يتحبب إلى الناس ويختلط بهم"[1].

ويقول ابن منظور: "الخُلطة بالضم: الشركة، والخلطة بالكسر العشرة، والخليط: القوم الذين أمرهم واحد، وإنما كثر ذلك في أشعارهم لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد فيقع بينهم ألفة فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك... والخليط: الزوج وابن العم"[2].

أما المخالطة في الاصطلاح: "فهى الجمع بين أجزاء الشيئين"[3].

والمخالطة تستعمل على الحقيقة في الأجسام ومن ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[4].

يقول ابن عاشور في معنى: ﴿ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾: "هو الشحم الذى يكون ملتفا على عظم الحيوان من السمن فهو معفو عنه لعسر تجريده عن العظم"[5].

(١) أساس البلاغة للزمخشرى ٢٤٦/١ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "خلط" ٢٩٣/٧.

(٣) المفرادات للراغب ص١٥٥ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٤٦ .

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤٢/٨ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

يقول الألوسى: "أى فاشتبك وخالط بعضه بعضا بكثرته وتكاثفه بسبب كثرة سقى الماء إياه، أو المراد فدخل الماء في النبات حتى روى ورف"[2].

كما يستعمل الخلط في العرض[3] وذلك مثل الأعمال التى تصدر من الإنسان ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

يقول الألوسى: "الخلط المزج وهو يستدعى مخلوطا ومخلوطا به". ومعنى خلط العمل الصالح بالشئ: أنهم أتوا أولا بالصالح ثم استعقبوه سيئا ومعنى خلط الشئ بالصالح: أنهم أتوا أولا بالشئ ثم أردفوه بالصالح"[5].

أما استعمال المخالطة بين الناس فتطلق على سبيل المجاز لشدة الملابسة الناشئة من التشابك مما يوحد بينهم في كثير من الصفات والطبائع وينشئ أمورًا مشتركة يتعذر معها التمييز.

ومن أصنافها خلطة المال بين الناس وتسمى شركة يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[6].

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

(٢) روح المعانى للألوسى ٢٧٦/١١ .

(٣) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص٢٤٩ تحقيق حسام الدين القدسى ط . دار الكتب العلمية ، والعرض: ما لا يوجد إلا في جسم يحل به . الفتاوى لابن تيمية ٣٠٠/٩ ، والتعريفات للجرجانى ص١٤٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٠٢ .

(٥) روح المعانى ١٢/١١.

(٦) سورة ص ، الآية ٢٤ .

كما تطلق على المصاهرة في النكاح وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾[1].

يقول ابن عاشور: "المخالطة هنا مجاز في شدة الملابسة والمصاحبة، والمراد بذلك ما زاد على إصلاح المال والتربية عن بعد فيشمل المصاحبة والمشاركة والكفالة والمصاهرة إذ الكل من أنواع المخالطة"[2].

فالمخالطة التى أباحها الله مع اليتيم تشمل المشاركة في المال، والمصاهرة معهم، وكفالته، وصحبته أخذًا من عموم لفظ المخالطة.

والخلاصة: أن المصاحبة بين الناس تبدأ وتتفرع من المخالطة باعتبارها نوعا من أنواعها ولذا كانت المخالطة لفظًا مقاربا للصحبة ولكنها تفارقها في أن الصحبة علاقة بشرية خالصة أما المخالطة فتطلق على البشر وغيرهم من الأجسام والأعراض.

ومن أمثلة ذلك العلاقة الزوجية فالزوج يسمى بالخليط، ويسمى بالصاحب.

رابعًا: المقارنة:

من الألفاظ المقاربة للصحبة المقارنة.

وهى في اللغة: الجمع بين شيئين.

يقول ابن زكريا: "القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على جمع شئ إلى شئ، والآخر شئ ينتأ بقوة وشدة، فالأول: قارنت بين الشيئين، والقِران: الحبل يقرن به شيئان والقَرَن: الحبل... والقِران: أن تقرن حجة بعمرة، والقرينة: نفس الإنسان كأنهما قد تقارنا... وقرينة الرجل: امرأته"[3].

أما في الاصطلاح: فهى الازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعانى[4].

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٩/٢ .

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن زكريا مادة "ق . ر . ن" ٧٦/٥ .

(٤) بصائر ذوى التمييز ٢٦٠/٤ ، ٢٦١ ، والراغب ص٤٠١ .

وهذان الشيئان قد يكونان متماثلين في الجنس أو مختلفين فمن المقارنة التى وقع فيها التماثل في الجنس[1] قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ ﴾[2]. فكل من المقارن وقرينه من البشر إلا أن إحداهما مسلم والآخر كافر.

يقول ابن عاشور: "أى يقول لصاحبه لما أسلم وبقى هو على الكفر يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه في صحته رجاء أن يرجع به إلى الكفر"[3].

وقد تقع المقارنة مع اختلاف الجنس يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾[4].

يقول ابن عطية: "القرين فعيل بمعنى فاعل من المقارنة وهى الملازمة والاصطحاب، والإنسان كله يقارنه الشيطان لكن الموفق عاص له"[5]. ولذا فمقارنة الشيطان للطائع ناقصة أما العاصى فمقارنته كاملة ودائمة يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[6].

يقول ابن عاشور: "أى قرين له مقارنة تامة"[7].

ويقول الألوسى: "دائما لا يفارقه ولا يزال يوسوس له ويغويه"[8].

فيمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية. وما كان ذلك إلا لعشوه وضعف تعلقه بأوامر الله.

ومن صور المقارنة مع الاختلاف في الجنس أن تقع المقارنة بين الإنسان والملك. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾[9].

(١) الجنس : هو الاسم الدال على كثيرين مختلفين بأنواع . التعريفات ٢٥/١ .
(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٠ ، ٥١ .
(٣) التحرير والتنوير ١١٦/٢٣ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٣٨ .
(٥) المحرر الوجيز ٥٣/٢ .
(٦) سورة الزخرف ، الآية ٣٦ .
(٧) التحرير والتنوير ٢١١/٢٥ .
(٨) روح المعانى ٨٢/٢٥ .
(٩) سورة ق ، الآية ٢٣ .

يقول ابن الجوزى: "هو ملكه الذى كان يكتب عمله السئ في دار الدنيا يقول لربه: قد كتبت ما وكلتنى به فهذا عندى معد حاضر من عمله الخبيث"[1].

وقد فسر كثير من المفسرين[2] المقارنة بالصحبة مع أن الاختلاف بينهما يظهر في ثلاثة أوجه:

- فالصحبة علاقة تتطلب التماثل في الجنس البشرى، وتقوم على العشرة والاختلاط، أما المقارنة فلا تطلق على العلاقة بين البشر إلا من باب المجاز "تشبيها للملازمة الغالبة التى تكون بين الصاحبين بحيث لا ينفصلان"[3]، أما المقارنة فلا تتطلب المماثلة فتقرن البشر مع غير جنسهم ملكا كان أم شيطانا.
- وفضلا عن ذلك فإن الصحبة تفارق المقارنة في كونها تفيد الانتفاع أما المقارنة فلا تفيد ذلك.

يقول أبو هلال العسكرى: "الفرق بين الصاحب والقرين أن الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصة فيقال صحب زيد عمرا، والمقارنة: تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر ويجرى على طريقته، وإن لم ينفعه، ومن ثم قيل قران النجوم، وقيل للبعيرين إذا شد أحدهما إلى الآخر بحبل قرينان"[4].

ولذا يطلق القرين على صاحب السوء لأنه يضر صاحبه ولا ينفعه كما في الآية السابقة من سورة "الصافات".

- وهناك اختلاف ثالث وهو أن الملازمة في الصحبة تقع على معظم الأمر وغالبه أما في المقارنة فتفيد الدوام.

وذلك راجع إلى أن الصحبة تكون في الدنيا فقط أما المقارنة فتكون في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝ ﴾

(١) زاد المسير في علم التفسير ١٩٦/٧ .
(٢) تقدم قول ابن عطية وابن عاشور ، ومنهم القرطبى ١٧٤/٥ ، واللباب ٣٨٠/٦ .
(٣) التحرير والتنوير ١١٦/٢٣ .
(٤) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص٢٣٥ .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

فهذه الآيات تتحدث عن اليوم الآخر وفيها يسمى الله "الملك الموكل بالإنسان وبسوقه إلى أرض المحشر"[2] بالقرين في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾[3].

والملك القرين موكل بابن آدم منذ خلقه وحتى ينال جزاءه.

يقول ابن القيم: "والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفه إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر، فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب"[4].

ويسمى الشيطان الذى كان يزين الكفر بالقرين[5] في قوله: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ فالشيطان يحاول التخلص من تبعية إضلال ابن آدم ولا يفلح في تخلصه فيلقيان معا في النار.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ

(١) سورة ق ، الآيات ١٩ ــ ٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٠/٢٥ .

(٣) زاد المسير ١٩٦/٧ .

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١٠٢/٢ .

(٥) مفاتيح الغيب ٤٤٢/٢٨ .

أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

يقول الرازى: "إن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار"[2].

فكل من الملك الموكل بابن آدم والشيطان يقترنان بابن آدم منذ مولده حتى مجازاته بالجنة أو النار وهذا ما يفرق بين الصحبة والمقارنة، ويوضح ما قاله الإمام القرطبى عن الصحبة بأنها: الاقتران بالشئ في حالة ما في زمان ما"[3].

فالحالة المشتركة بين الصحبة والمقارنة هى الحالة البشرية الجامعة بين الطرفين.

والزمان هو الزمان الدنيوى، وما جاوز هذين الأمرين يطلق عليه مقارنة.

خامسًا: لفظ (مع):

يطلق لفظ (مع) فى اللغة على عدة معان:

(١) الاجتماع في الزمان والمكان. يقول الفيروز آبادى: "(مع) اسم بدليل التنوين في قوله: (معًا) وتستعمل مضافة، ولها حينئذ ثلاثة معان:

أحدها: موضع الاجتماع.

والثانى: زمانه نحو جئتك مع العصر"[4].

(٢) والصحبة.

يقول ابن زكريا: "(مع) كلمة مصاحبة، يقال هذا مع ذاك"[5].

أما في الاصطلاح فقد عرفه الراغب فقال: "الاجتماع في المكان أو في الزمان أو في المعنى أو في الرتبه"[6].

ويدل هذا التعريف على أن المعية قسمان: معية حسية ومعية معنوية.

(١) سورة الزخرف ، الآيات ٣٦ ــ ٣٩ .

(٢) مفاتيح ١٠١/٢٧ ، النكت والعيون للماوردى ٢٢٦/٥ .

(٣) تقدم ص٣ .

(٤) القاموس المحيط مادة "مع" ، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصارى ، دار أحياء الكتب الغربية ٣٣٣/١ ، الاتقان في علوم القرآن للسيوطى ٥٣٣/١ .

(٥) معجم مقاييس اللغة مادة "مع" .

(٦) المفرادات للراغب ص٤٧٠ .

أما المعية الحسية فتتحقق بالصحبة في مكان ما، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾[1].

يقول النيسابورى: "أى: أرسله معنا غدا إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ أى نذهب ونجئ وننشط ونلهو"[2].

فعبر أخوة يوسف عن رغبتهم في الاجتماع مع يوسف في الصحراء بلفظ (معنا).

أما المعية المعنوية فتتحقق بأى أمر من الأمور التالية:

(١) الاجتماع في الفعل وهو ما يسمى بالمشاركة[3].

(٢) الاجتماع في العقيدة.

(٣) الاجتماع في الصفات.

(٤) الاجتماع في الرتبة والشرف.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ "مع" في جميع هذه المعانى.

فمن استعمال "مع" بمعنى الاجتماع في الفعل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[4] ومعناه وسخرنا فعل الجبال مع داود عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾[5] أى كانوا مع رسول الله ﷺ مجتمعين في مكان ما.

ومن دلالة (مع) على الاجتماع في العقيدة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[6].

(١) سورة يوسف ، الآية ١١ ، ١٢ .

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبى الحسن النيسابورى ، تحقيق الشيخ عادل أحمد دار الكتب العلمية ٦٠٢/٢ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٧٤٣/٩ .

(٣) انظر الفروق اللغوية بتصرف ص٤٩٩ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٧٩ .

(٥) سورة النور ، الآية ٦٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

يقول الألوسى:"معية معنوية، وهى مساواتهم لهم في اعتقاد اليهودية"[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ... ﴾[2] في العقيدة.

ومن الاجتماع في الصفات قوله تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾[3] أى لا تجمع مع الله في صفة الألوهية شيئا آخر فتشركه معه في استحقاق العبادة.

يقول ابن عطية: "الذم لاحق من الله تعالى، ومن ذوى العقول في أن يكون الإنسان يجعل عودًا أو حجرًا أفضل من نفسه، وينسب إليه الألوهية، ويشركه مع الله الذى خلقه ورزقه وأنعم عليه"[4].

ومن دلالة (مع) على الاجتماع في الرتبة والشرف قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾[5].

فقد طلب موسى عليه السلام من الله عز وجل أن يشرك معه أخاه هارون في شرف الرسالة فقال: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴾. "حتى يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل عن الكفار"[6].

وقد تطلق المعية ويراد منها المعنى المجازى وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[7]. وإنما حمل على المجاز لأن الله منزه عن المكان وعن الزمان وعن الحوادث فدل ذلك على أن المقصود هو لازم معناه لما هو معلوم من أن الوجود في المكان يلزم منه العلم بما فيه.

يقول الرازى: "قال المتكلمون هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ والحراسة، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز،

(١) روح المعانى ١٦٦/١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٦٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٢٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤٤٧/٣ .

(٥) سورة القصص ، الآية ٣٤ .

(٦) مفاتيح الغيب للرازى ٢٨٢/٢٣ .

(٧) سورة الحديد ، الآية ٤ .

فإذن قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ بالعلم والقدرة والإعانة، ولابد فيه من التأويل"[1].

وهذه معية الله العامة التى تشمل كل خلقه فلا يخفى عليه شئ من أعمال عباده ولا يعجزه شئ، وله أيضا معية خاصة مع صفوة خلقه بالحفظ والنصرة والمعونة.

يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[2].

يقول أبو حيان: "المعية هنا معية الإعانة والعناية"[3].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ ﴾[4] أى هو معى بالهداية والتوفيق.

يقول ابن عاشور: "إسناد المعية إلى الرب في ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه"[5].

وتأتى المعية بمعنى الصحبة في حالة مخصوصة، فكل منهما اجتماع إلا أن اجتماع الصحبة اجتماع بشرى، أما المعية فالاجتماع فيها ممتد شامل لكل الأشياء، والمصاحبة تقتضى طول لبث "فكل اصطحاب اجتماع وليس كل اجتماع اصطحاب"[6].

ويمكن تلخيص شروط إطلاق لفظ (مع) على الصحبة في ثلاثة شروط:

(١) أن يكون الاجتماع بين بشر.

(٢) أن يكون بينهما طول لبث.

(٣) أن يقوم ذلك الاجتماع على النفع وتبادل الخيرات.

يدل على هذه الشروط قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[7].

(١) مفاتيح الغيب ٣٦٤/٣٠ ، ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٢٥٧/٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

(٣) البحر المحيط لأبى حيان ٢٠٣/٦ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية ٦١ ، ٦٢ .

(٥) التحرير والتنوير ١٣٥/١٩ .

(٦) ينظر بصائر ذوى التمييز ٣٨٧/١٣ .

(٧) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

ففى صحبة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام التى عبر الله عنها بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ تتحقق هذه الشروط.

فقد حصل بينهم اجتماع طويل في المكان سواء كان في مكة المكرمة أو في المدينة المنورة، ووقع بينهما التعاشر والتعاضد على قاعدة: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهى قاعدة تقوم على رقة المشاعر، وجلب النفع، ودفع المضار، وقد وجدت في جميعهم هذه الصفات.

وفوق ذلك تحقق الاجتماع على الفعل والهدف والغاية: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وهذا هو الذى يرفع العلاقة من مجرد الصحبة إلى المعية ولذا سمى ابن عاشور هذه الصحبة بالصحبة الكاملة.

يقول ابن عاشور: "ومعنى ﴿ مَعَهُۥٓ ﴾ المصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد، والمراد: أصحابه كلهم لا خصوص أهل الحديبية"[1].

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣/٢٦ .

المطلب الثالث
التعريف الجامع للصحبة

من خلال العناصر السابقة التى تم شرحها وبيانها خلال المطلبين السابقين يمكن صوغ تعريف جامع مانع للصحبة وهو:

الصحبة علاقة اجتماعية بشرية، تنشأ عن طول اللبث بين أطرافها وكثرة الملاقاة بينهم، وتتميز بالتآلف والتشابك في الأحوال والصفات، وتتأكد بالتأييد والمناصرة وتبادل المنفعة.

شرح التعريف:

القول بأن الصحبة (علاقة اجتماعية) أصل في التعريف ذلك أن أقل الصحبة اجتماع بين اثنين.

(بشرية) قيد في التعريف يخرج به مقارنة الشيطان أو الملك الموكل للإنسان.

(تنشأ عن طول اللبث، وكثرة الملاقاة) قيد ثان تخرج به العلاقة الإنسانية العابرة، والمرافقة السريعة.

(التآلف والتشابك) قيد يخرج به المنافرة والمخاصمة، وإن طال اللبث.

(وترتقى بالتأييد والمناصره) بيان لكمال الصحبة، وبهذا التعريف يصبح للصحبة ثلاثة مفاهيم:

الصحبة اللغوية: وهى الصحبة التى تتميز بطول اللبث والملازمة.

الصحبة العرفية: وهى ما اجتمعت لها خصائص الملازمة مع التشابك والتماثل في الأحوال والصفة والمشاركة.

الصحبة الشرعية: وهى ما استجمعت كل ما سبق وتآزرت بالتأييد والمناصرة والمواساة وبهذا يتبين لنا كيف تميزت بلاغة القرآن في اختيار الألفاظ ووضعها مع جارتها لتوضيح معان دقيقة وراقية... فعلاقة الزوجية لم يعبر عنها بالصحبة البشرية إلا عند الحديث عن أهوال القيامة لإظهار شدة الهول الذى يدفع الزوجة المؤيدة والمناصرة لزوجها أن تفر من زوجها مع أنه أقرب الناس إليها لتفتدى نفسها كما يفر الزوج من زوجته لنفس الغاية ولا تحاد الحال.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ ﴾[2].

تبدأ العلاقات الإنسانية بين الأفراد ذوى القربى، وكلما كبر الإنسان، واتسعت مداركه، وأنشطته اتسعت دوائر الاختلاط، والاحتكاك بالعديد من الناس مما يساعدهم على التعارف والتواصل ثم تتعضد العلاقة بالعشرة، والتناصر، والتعاون وتبادل المنافع، والخبرات، وقد تطول هذه العلاقة ويتلاصق أصحابها ويتلازمون فتنشأ بينهم صحبة وقد تطرأ عوامل ومتغيرات تؤثر في العلاقة وتتحكم في تطورها فتبقيها في طور معين وتحول بينها وبين النمو والتأصل.

وأبرز العوامل التى تؤثر في تشكيل الصحبة ومن ثم في تطورها ونموها ثلاثة عوامل:

(١) الالتقاء والملازمة في المكان.

(٢) الاشتراك في العمل.

(٣) علاقة القرابة.

وسوف أتناولها من خلال المطالب التالية:

(١) سورة عبس ، الآيات ٣٤ ــ ٣٦ .

(٢) سورة المعارج ، الآيات ١١ ــ ١٣ .

المبحث الثاني: في عوامل ونشأة الصحبة

المطلب الأول

الالتقاء والملازمة في المكان

يعيش البشر على الأرض، ويتحرك خلالها، ويتخذها مكانا للعمل والحركة، وموئلا للراحة والسكن، وموطنا للقاء والتواصل والتعاون.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾[1] أي يسرنا لكم السيطرة على جوانب الحياة في الأرض، وجعلنا فيها معايش، ووزعناكم على جوانبها المختلفة، وجعلناكم قبائل وشعوبا لتتعاونوا .

والصحبة نمط من أنماط العلاقات الإنسانية، تحتاج إلى المكان، حيث يعيش الأفراد ويتلاقون فيه فيما بينهم، ولهذا جاء لفظ الصحبة مقترنا بالمكان في آيات كثيرة على معنى السكن والإقامة الطويلة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾[2] فهم أصحاب القرية لطول إقامتهم بها حتى عرفت بهم، وعرفوا بها.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾[3] وهم أصحاب شعيب عليه السلام طال مكثهم بالبستان حتى صاروا أصحابا له.

وقد يتعمق تأثير المكان ويتجاوز دوره في تسهيل الالتقاء إلى تعميق التآلف بين النفوس. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[4].

يقول ابن عاشور: "عبر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما... للإيذان بما حدث من الصلة بينهما، وهى صلة المماثلة في الضراء، والألف في الوحشة، فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها"[5].

فالمراد "﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ﴾ فيه فالإضافة على تقدير حرف الظرفية أى يا صاحبى

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٠ .
(٢) سورة يس ، الآية ١٣ .
(٣) سورة الحجر ، الآية ٧٨ .
(٤) سورة يوسف ، الآية ٣٩ .
(٥) التحرير والتنوير ٢٧٠/٧ .

في السجن"[1].

وهذا الالتقاء في السجن وما حدث فيه من اختلاط واحتكاك ولدّ بين يوسف عليه السلام والفتيين

مودة وتعارفا، فتعرف الفتيان على حسن حديث يوسف عليه السلام، وفضله ونبله وإحسانه للآخرين وطيب عشرته فقصداه في تعبير الرؤيا.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

يقول البيضاوى: "وإنما قالا له: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنهما رأياه في السجن يُذكر الناس، ويعبر رؤياهم، وكان من المحسنين إلى أهل السجن"[3].

وقد بقى معروف يوسف عليه السلام وتأويله لرؤياهم ونصحه وإرشاده لهما في نفس الناجى منهما حتى عاد إلى يوسف عليه السلام بعد سنين طالبا استشارته في تعبير رؤيا الملك وواصفا إياه بالصديق وهى صفة لا تعرف إلا بالمعاشرة والملازمة.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[4].

"ووصفه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جرب صدقه في مواطن عديدة"[5].

وقد يأتى دور المكان في تعزيز الصحبة ثانيا بعد عوامل الاشتراك في الهدف كما هو الحال مع أصحاب الكهف فقد كان لجوؤهم إلى الكهف فرارًا بدينهم واعتزالا

(١) المرجع السابق .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٦ .
(٣) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٠٥/٥ بتصرف يسير منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان .
(٤) سورة يوسف ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ١٣ ، ١٤ .

لقومهم لئلا يردوهم عن عبادة الله التى قامت على أساسها صحبتهم.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝ ﴾[1].

يقول القرطبى: "إنهم أولاد عظماء في تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد فقال أسنهم: إنى لأجد في نفسى أن ربى رب السموات والأرض فقالوا: ونحن كذلك نجده في أنفسنا فقاموا جميعا فقالوا جميعا: ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا"[2].

فقال سبحانه عنهم عندما قرروا اعتزال قومهم: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾[3].

يقول أبو حيان: "﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ أى اجعلوه مأوى لكم تقيمون فيه وتأوون إليه"[4].

ومن ثم كانت تسميتهم أصحاب الكهف لأنه المكان الذى التقوا فيه على تحقيق مرادهم وهدفهم.

ولما للمكان من ارتباط شديد بقيام الصحبة؛ ربط الله سبحانه وتعالى بينهما عند الوصية بالإحسان بالصاحب فلم يكتف بالوصية بالصاحب فقط أو القاعد بجنبك فقط؛ بل قال سبحانه: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾[5]. للعناية بالصحبة من أولى مراحلها التى تبدأ بالملاقاة قبل أن ترتقى إلى كمال الصحبة وتتوثق عراها.

يقول عز وجل في سورة النساء: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا

(١) تفسير البيضاوى ٣١٦/٥ ، المحرر الوجيز ٢٤٩/٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٤/١٠ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ١٦ .
(٤) البحر المحيط ١٠٦/٦ .
(٥) سورة النساء ، الآية ٣٦ .

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

يقول الألوسى: "عدوا من ذلك من قعد بجنبك في مسجد أو مجلس وغير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه"[1].

واتفق العلماء على اشتراط الملاقاة والاجتماع بالنبى ﷺ في تحديد الصحابى[2].

(١) روح المعانى ٢٩/٥ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ١٧٦/٢ دار إحياء التراث .
(٢) سيأتى الحديث بالتفصيل عن تعريف الصحابى في مبحث صحبة الأنبياء ص٤٩ .

المطلب الثانى
الاشتراك في العمل

من الأسباب المساعدة على قيام الصحبة بين الأشخاص اشتراكهم في عمل واحد لأن طبيعة العمل تتطلب الالتقاء بصورة منتظمة، وتبادل الأفكار، والتعاون على تذليل العقبات والصعوبات، كما أنها تماثل بينهم في الأحوال والصفات وتتيح لكل فرد استعراض مواهبه وقدراته، والحصول على التقدير مما يزكى شعور الفرد بقيمته ويدفعه للاندماج مع فريق العمل، والانسجام والتقارب معهم.

وفى القرآن الكريم صور كثيرة لأعمال متفرقه أطلق الله سبحانه وتعالى على القائمين عليها لفظ أصحاب.

منها: **الصحبة بالسفر والخروج من البلد:**

فها هم بنو إسرائيل يلتقون على ضرورة الخروج من مصر فرارًا من فرعون وجنوده تحت قيادة موسى ﷺ فيسميهم الله أصحاب موسى ﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ ﴾[1].

ولم يطلق الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل هذا الوصف مع كثرة قصصهم في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع لشدة مخالفتهم لموسى ﷺ وعدم موافقتهم له إلا في هذا الموقف، وكمال الصحبة لا ينال إلا بالانقياد والمتابعة.

ومثل هذه التسمية تسمية "من ركب في السفينة مع نوح من أولاده وأتباعه"[2] بـــ "أصحاب السفينة".

يقول تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

ومنها: **الصحبة في الصيد:**

ووصف الله سبحانه وتعالى بعضا من بنى إسرائيل بـــ "أصحاب السبت". فقال

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٥٩ ــ ٦١ .

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ٢٥٢/٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآيات ١٥ .

سبحانه: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾[1].

وذلك أن بعضا من بنى إسرائيل تواردت هممهم ودوافعهم على مخالفة أمر الله تعالى، بتحريم الصيد يوم السبت، وجعله يوما خالصا للعبادة، فقاموا بنصب الشباك من يوم الجمعة حتى تدخلها الحيتان ثم يجمعوها يوم الأحد تحايلا منهم على أمر الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[2].

يقول الألوسى: "السبت اسم لليوم المعروف وهو مأخوذ من السبت الذى هو القطع لأنه سبت فيه كل شئ وعمله.

وقيل: هو من السبوت وهو الراحة والدعة، والمراد به هنا اليوم، والكلام على حذف مضاف أى في حكم السبت، لأن التجاوز والاعتداء لم يقع في اليوم بل في حكمه بناء على ما حكى أن موسى ﷺ أراد أن يجعل يوما خالصا للطاعة وهو يوم الجمعة فخالفوه، وقالوا نجعله يوم السبت لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئا، فأوحى الله تعالى إليه أن دعهم وما اختاروا ثم امتحنهم فيه فأمرهم بترك العمل، وحرم عليهم فيه صيد الحيتان فلما كان زمن داود ﷺ اعتدوا... "[3].

الصحبة في العمل السئ:

وفى القرآن الكريم صور أخرى للصحبة التى تجتمع على العمل السئ وتهدف إلى تدمير المجتمعات، والصد عن طاعة الله وعن الإيمان به، وهدم منارات الدين والأخلاق والهدى، وبناء معاقل الفساد والدمار.

يقول تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾[4].

"ولفظ أصحاب يعم الأمرين بجعل الأخدود، والمباشرين بالحفر، وتسعيره، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه"[5].

(١) سورة النساء ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة البقرة ، ٦٥ .

(٣) روح المعانى للألوسى ٢٨٢/٢ ، وينظر التحرير ٥٤٣/١ ، واللباب ١٤٧/١ .

(٤) سورة البروج ، الآية ٤ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٤١/٣٠ .

ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[1] "وأصحاب الفيل هم الحبشة الذين جاءوا مكة غازين مضمرين هدم الكعبة انتقاما من العرب من أجل ما فعله أحد بنى كنانة"[2].

وأضيف الأصحاب إلى الفيل لأنه كان الوسيلة التى أوصلتهم إلى مكة، والمراد بالفيل فيل أبرهة لأنه لم يكن في الجيش فيل غيره، وقيل كان فيه فيله أخرى أقل منه حجما، وأصغر شأنا.

صحبة خاصة:

أما عندما يرتقى العمل إلى هدف نبيل، ويسمو إلى غرض أخروى لا يرتجى من ورائه إلا رضا الله تعالى فإن تلك الصحبة تعد ضربا من ضروب المعية كما هو الحال مع النبى ﷺ وصحابته الكرام[3].

(١) سورة الفيل ، الآية ١ .
(٢) التحرير والتنوير ٥٤٦/٣٠ .
(٣) ينظر ص٥ ، ١٦ .

المطلب الثالث
علاقة القرابة

ويقصد بـ "القرابة": "الاشتراك في النسب" **وتقوى وتضعف** بمقدار الدنو أو البعد في النسب، ولذلك جعلها الناس درجات، وطبقات.

والقرابة آصرة تكون لها في النفس معزة ومودة، وفى العمل والفكر حرص على سلامة صاحبها، وينشأ الإلف والميل بين أفرادها من طول الملازمة وكثرة المخالطة.

وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على بعض القرابات صحبة **مثل قرابة الزوجية**.

صحبة قرابة الزوجة:

يقول تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾[1] أى زوجة لازمته، وعاشت معه لأنها لا تكون إلا مع الحادث المتجدد.

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

والصاحبة هنا هى الزوجة عند كثير من المفسرين[3].

صحبة الأسرة الواحدة:

ومن الزوجة تتكون الصحبة الثانية داخل الأسرة الواحدة بين الآباء والأبناء، يقول تعالى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[4]. والمعنى: "صاحب والديك صحبة حسنة"[5]، وإنما أمر الله الأبناء بالمصاحبة دون الآباء، لأن الصحبة موجودة لديهم بالفطرة فلا حاجة للتوصية بها.

صحبة أوسع:

ومن خلال الأسرة يتعرف الطفل على قرابات أخرى، فتتسع دائرة معارفه،

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠١ .
(٢) سورة عبس ، الآيات ٣٤ ــ ٣٦ .
(٣) ينظر روح المعانى ١٩٩/٢٢ ، التحرير ١١٧/١٦ ، تفسير النسفى ٩/٤ .
(٤) سورة لقمان ، الآية ١٥ .
(٥) التحرير والتنوير ١٦١/٢١ .

وأقربائه وأترابه، وإخوانه، ويتخذ منهم أصحابا لكثرة الالتقاء والمخالطة، وتماثل الأحوال.

وقد كان عدد من صحابة النبى ﷺ من ذوى قرابته كالإمام علي بن أبى طالب، وعبد الله بن عباس، وجعفر بن أبى طالب، والعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم جميعا، وكان لهم مع رسول الله ﷺ علاقة حسنة قوية فهم عصبته، وذوو رحمه، وأقرب الناس إليه.

المبحث الثالث
أسس اختيار الصاحب الصالح

الإنسان اجتماعى بطبعه، يميل إلى الاختلاط بالآخرين ويكره الوحدة ولذا يحتاج إلى صاحب يتواصل معه، ويستأنس برفقته، ينفعه ويقيه مسالك الشر، ويدله على طريق الحق، ولا يصلح كل إنسان للصحبة، ولابد للصاحب من صفات وخلال يُرغَب بسببها في صحبته.

وعندما أعرض المشركون عن اتباع النبى ﷺ بعد طول مصاحبتهم[1] وملازمتهم له في مكة وبعد أن عرفوا أخلاقه وخبروا طباعه؛ أكد سبحانه وتعالى على استمرارية صفات الصحبة الصالحة فيه حتى لا يكون لهم عذر في ترك صحبته، فهذه الصفات الطيبة التى امتاز بها عليه الصلاة والسلام تحبب الناس في صحبته، وفى صحبَه غيره ممن تتوافر فيه هذه الصفات، وإن تفاوتت درجة وجود الصفة بين النبى عليه السلام وغيره.

وأبرز هذه الصفات التى ينبغى أن يمتاز بها الصاحب:

(١)العقل.

(٢)سلامة الدين (العقيدة).

(٣)استقامة السلوك.

وسأتناول هذه الصفات من خلال المطالب التالية:

(١) يقصد بالصحبة هنا : الصحبة اللغوية دون الصحبة بالمفهوم الشرعى والتى لا تطلق إلا على المؤمن، ولذا قال سبحانه : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ إذ صاحبهم ﷺ في مكة مدة أربعين عاما، واشترك معهم في أعمال الخير كحلف الفضول ، وحرب الفجار ، وإعادة بناء الكعبة ، وابتعد عنهم في الأعمال السيئة من عبادة الأصنام ، وحفلات اللهو .

المطلب الأول
العقـــل

من أهم الصفات التى ينبغى توفرها في الصاحب صفة العقل.

"والعقل ضد الحمق وهو في الأصل: المنع والحبس" وذلك لأن العاقل يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذا من قولهم: قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع من الكلام[١].

"والعقل نوعان عقل مطبوع، وعقل مسموع"[٢].

فالعقل المطبوع هو "الغريزة التى أودعها الله في الإنسان ليتميز بها عن سائر البهائم، ويتمكن بها من إدراك العلوم النظرية"[٣] وهى دوافع فطرية تتأثر بالثقافة والقيم السائدة.

والعقل المسموع هو ما يكتسبه الإنسان من قيم ومعارف وأعمال بواسطة العقل المطبوع الذى يكتسبها من العلوم الضرورية والنظرية والخبرات والتجارب.

وقد مدح الله نبيه ﷺ بصفة العقل ونفا عنه الجنون ليردّ سبحانه عن نبيه ﷺ افتراءهم وبهتانهم ويلزمهم الحجة والمحجة إلزاما، إذ أنهم يجحدون الحق الذى يعرفونه عنه ﷺ فهو ليس بعيدًا عن معرفتهم له، ولا تخفى عليهم أحواله كما لا يخفى حال الصاحب على صاحبه. فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٤]

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ

(١) لسان العرب لابن منظور . مادة "عقل" .

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب الغزيز ٨٥/٥ .
وقد ورد هذا التقسيم عن الإمام على مسجوعا :
العقـــل عقـــلان ∴ فمطبـــوع ومسموع
ولا ينفع مطبوع ∴ إذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس ∴ وضوء العين ممنوع
ينظر روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البروسوى ت (٢١٣٧) دار إحياء التراث.

(٣) إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى ت (٥٠٥) ط . دار القلم – بيروت ٧٩/١ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٨٤ .

تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[٢] والمراد بالصاحب في الآيات رسول الله ﷺ وكلها تؤكد قوة عقله، ومتانة خلقه وبعده التام عن الخبل والجنون.

يقول ابن عاشور: "إن وصف صاحب كناية عن كونهم يعلمون خلقه، وعقله ويعلمون أنه ليس بمجنون، إذ شأن الصاحب لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه... فإنه عليه السلام معروف بصحة الرأى والعقل وأصالة التفكير والنظر... وما قولكم عليه: (**إنه مجنون**) إلا لقصد البهتان وإساءة السمعة"[٣].

وصفة العقل تظهر في الصاحب من أمور عدة أهمها:

(١) تمييز مداخل الخير من مداخل الشر فيستطيع أن يحذر قومه وأصحابه مما يضرهم في دينهم ودنياهم بصورة سلسة تستوعبها عقولهم.

ولذا عقب سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بعد نفى الجنون عنه ﷺ بقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾.

ومعنى: ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى محذر من شئ خطير، ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح فيما يبلغه من نذارة وغيرها... وفى هذا استغناء وتسفيه لهم بأن حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البينة وحال هذيان المجنون"[٤].

فالصاحب يحذر صاحبه من طرق الشر والضرر التى يعرفها بوضوح وبيان، دون لبس أو غموض بحيث يعرف صاحبه بداية طريقه، ومآل عاقبته.

فها هو معاذ بن جبل ﷺ[٥]، وقد كان ذكيا مستنير العقل، حلو المنطق يدبر لـــ

(١) سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥٧/٣٠ ، ١٥٨ باختصار ، وينظر روح المعانى للألوسى ١٢٨/٩ ، تفسير المنار المعروف بتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا، ط . دار المنار ٣٧٧/٩ .

(٤) التحرير والتنوير ١٩٥/٥ باختصار .

(٥) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن الخزرج يكنى أبا عبد الرحمن نسبه بعضهم في بنى سلمة ، أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وبين عبد الله بن مسعود ، شهد بدرًا والمشاهد كلها وبعثه عليه السلام قاضيا إلى اليمن ، مات بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ١٨ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة . ينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبى عمرو يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق علي محمد البجاوى ت ١٤٠٥ ط . مكتبة نهضة مصر ١٤٠٢/٣ .

عمرو بن الجموح[1] حيلة تدفعه إلى إعمال عقله في إلهه الذى يعبده، ويُهيِّأ ذلك عن طريق صاحبه معاذ بن عمرو بن الجموح الذى جمعته مع أبيه صحبة الأبوة.

قال محمد بن إسحاق ﷺ: لما أسلم فتيان بنى سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو[2] في فتيان منهم كانوا شهدوا العقبة، كانوا يدخلون فى الليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بنى سلم (وفيها عذرة[3] الناس) منكسا على رأسه فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا في هذه الليلة؟

قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال: وأيم الله لو أنى أعلم من صنع بك هذا لأخزيته فإذا أمسى عمرو ونام غدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إنى والله ما أعلم من يفعل بك ما ترى؛ فإن كان فيك خير فامتنع بهذا السيف معك، فلما أمسى، ونام غدوا عليه فأخذوه والسيف في عنقه ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه معه بحبل ثم ألقوه في بئر من أبيار بنى سلمة فيها عذره من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح، فلم يجده مكانه الذى كان فيه فخرج في طلبه حتى وجده في تلك البئر مقرونا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه أسلم وحسن

(١) عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصارى السلمى من بنى جشم بن الخزرج شهد العقبة ثم بدراً في قول وقتل يوم أحد شهيدًا ودفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد وكانا صهرين ، كان أعرجا قال عنه ﷺ بعد استشهاده ، والذى نفسى بيده إن منكم لمن لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح ، ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته . المرجع السابق ١١٦٨/٣ ، ١١٦٩ .

(٢) معاذ بن عمرو هو ابن عمرو بن الجموح ، شهد العقبة وبدرًا ، وهو الذى قطع رجل أبى جهل وصرعه فضرب ابنه عكرمة بن أبى جهل يد معاذ فطرحها ثم ضربه معاذ بن عفراء حتى أثبته ، وقضى لهما النبى ﷺ بسلب أبى جهل مات في خلافة عثمان . المرجع السابق ١٤١٠/٣ ، ١٤١١ ، أسد الغابة ٢١٩/٤ .

(٣) العَذِرة : الغائط الذى يلقيه الناس لسان العرب مادة "عذر" .

إسلامه[1].

وهكذا استطاع معاذ بن جبل ﷺ أن يرشد عمرو بن الجموح ﷺ إلى طريق الحق وعبادة الله بدفعه للتفكير في شأن صنمه الذى اتخذه معبودا إذ كيف يستطيع وهو لا يملك أن يدفع عن نفسه ضرًا أصابه أن ينفع أو يضر عابده؟

(٢) الصاحب العاقل يعقل محاسن الأمور ومميزاتها، ويستنبط المنافع بحيث يستطيع أن يوظفها في الأحوال المختلفة، والظروف الطارئة فيمد أصحابه بحلول معقولة لمشاكلهم، ويقضى حوائجهم، ويفرج كروبهم.

يقول الغزالى: "العقل علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال له عاقل في العادة"[2].

وهذا سلمان الفارسى ﷺ ذو الرأى الصائب، وقد كانت له سابقة خبرة بالخندق[3] من حروب الفرس يشير على أصحابه يوم غزوة "الأحزاب"[4] بحفر الخندق حماية للمدينة، فيعملوا بمشورته فيسلموا من شر المشركين من غير قتال.

فعن أبى معشر ﷺ قال: قال سلمان ﷺ للنبى ﷺ: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فأمر النبى ﷺ بحفر الخندق حول المدينة"[5].

(٣) يمنع العقل صاحبه من مواقعة الأحوال المردية ولذا ختم الله سبحانه وتعالى كثيرا من آياته بنفى العقل للإنكار على من يأتى بالأفعال المردية، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ت ٢١٣ قدم لها طه عبد الرءوف سعد . مكتبة الكليات الأزهرية ٧٠/٢ ، ٧١ ، أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبى الحسن علي بن محمد الجزرى ، صححها الشيخ عادل أحمد الرفاعى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ــ لبنان ٢٢٠/٤ .

(٢) إحياء علوم الدين ٧٩/١ .

(٣) الخندق : الوادى الذى يحفر حول مكان ما . لسان العرب مادة "خندق" .

(٤) سميت بغزوة "الأحزاب" لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين منهم قريش ، وغطفان، واليهود ومن تبعهم ، فتح البارى ٣٩٣/٦ .

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى لأحمد بن علي بن حجر العسقلانى ت (٨٥٢) ٣٩٣/٦ .

تَعْقِلُونَ ﴾[1].

يقول ابن عاشور: "استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهاما مستعملا في الإنكار والتوبيخ نزلوا منزلة من انتفى عقله فأنكر عليهم ذلك، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكر في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه، قارب أن يكون منفيا عنه التعقل"[2].

فمن نقص عقله ولم يستطع أن يقى نفسه موارد الهلاك كان أعجز عن نفع صاحبه، فعلى من أراد صاحبا عاقلا أن ينظر إلى فعله بنفسه فإن عصمها من المفاسد والمهالك كان نافعا لصاحبه وإن كان لا فلا، وما أكثر حوادث الصحبة – في زماننا – التى تجعل الصاحب يفتك بصاحبه من أجل حفنة من المال، أو مشادة كلامية، أو في لحظة غضب عابرة فيهلك نفسه وصاحبه معًا.

يقول الغزالى: على الاطلاق الرابع من إطلاقات العقل: "أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة"[3].

(٤) الصاحب العاقل يقبل على تعلم العلوم سواء الضرورية أو النظرية ولا يبخل على أصحابه في تعليمهم ما ينفعهم، بل يحضهم ويحثهم على طلب العلم.

وكم من صاحب أفاض على أصحابه بالعلم حتى كانوا يسمون تلاميذ العالم بالأصحاب[4]؟!

وقد تحدث الإمام الغزالى عن اشتراط صفة العقل في الصاحب فقال: "ينبغى أن تكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلا... اما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت:

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٤٧٧/١ .

(٣) إحياء علوم الدين ٧٩/١ .

(٤) سيأتى الحديث عن الصحبة العلمية في المبحث الثالث من الفصل التالى .

قال علي ﷺ:

فلا تصحب أخا الجهل ∴ وإيـــاك وإيـــاه

فكم من جاهل أردى ∴ حـليما حين أخـاه

يقاس المرء بالمرء ∴ إذا ما المرء ما شاه

وللشـــئ من الشـــئ ∴ مقـاييس وأشـباه

وللقـلب على القـلب ∴ دلـيـل حين يلقـاه

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدرى، ولذلك قال الشاعر:

إنى لآمن من عدو عاقل ∴ وأخاف خِلا يعتريه جنون

فالعقل فن واحد وطريقه ∴ أدرى فأرصد والجنون فنون"[1]

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ١٥٥/٢ .

المطلب الثانى
سلامة العقيدة "الإيمان"

من الصفات التى امتدح الله بها نبيه ﷺ وجعلها داعمة لاستمرار صحبته وملازمته صفة الاهتداء إلى الدين الحق أو ما يمكن أن يطلق عليه سلامة العقيدة.

يقول تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1] وأصل الضلال: الخطأ وعدم الوصول إلى الموضع المنشود.

يقول ابن منظور: "يقال أضللت فلانا إذا وجهته للضلال عن الطريق، وإذا أخطأت موضع الشئ الثابت مثل الدار والمكان قلت ضللته"[2].

ومعنى الآية: "ما عدل رسول الله ﷺ عن طريق الحق الذى هو مسلك الأخرة"[3].

والصاحب الذى أنار الهدى قلبه لا يبخل، ولا يضن بالخير على أصحابه، بل يسعى في هدايتهم بكل السبل والطرق الحكيمة يقول تعالى: عن نبيه ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[4].

وهكذا فعل يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن.

قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[5].

فقد اغتنم يوسف عليه السلام الفرصة عندما سأله الفتيان عن رؤياهما التى رأياها فطفق يتكلم معهما في أمور العقيدة، ويبين لهما كيف أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنه اتبع مله آبائه القائمة على التوحيد ثم استطرد معهم

(١) سورة النجم ، الآية ٢ .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "ضل" .
(٣) روح المعانى للألوسى ٤٥/٢٧ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ٣٣ . زاد المسير لابن الجوزى ٢٢٧/٧ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٣٩ ، ٤٠ .

في حديث عن الشرك وبطلانه، وتوحيد الله وأحقيته.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

ثم ختم يوسف عليه السلام حديثه معهم بتعبير الرؤيتين قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۖ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[2].

وأبو بكر الصديق يسلم ويستشعر حلاوة الإيمان فيبدأ في دعوة أصحابه في الجاهلية.

يقول ابن إسحاق: "كان أبو بكر ﷺ رجلا مألوفا لقومه محببًا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وكان تاجرًا ذا خلق ومعروف، فجعل لما أسلم يدعوا إلى الله، وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه عثمان، والزبير وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم"[3].

فأبو بكر قد اختار للدعوة إلى الإسلام الذين توفرت فيهم صفة الثقة وتوطدت علاقته معهم بكثرة المخالطة والمجالسة، وهذه أمور تدل على وجود صحبة تشهد بأهمية دور الصاحب المهتدى.

والصاحب الذى عرف طريق الحق لا يكتفى بمجرد الدعوة إليه بل يسعى لإزالة كل المعوقات النفسية والحسية مذكرًا بالله وعونه في كل المواقف التى يمكن أن تعصف بروح الإيمان.

وعندما أصاب أبو بكر ﷺ القلق والخوف من إدراك المشركين له ولرسول الله ﷺ في الغار طمأنه رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلا: ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٤١ .
(٣) سيرة ابن هشام ٢٤٩/١ .

لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

يقول ابن عاشور: "هذا القول صادر من النبى ﷺ لأبى بكر حين كانا مختفين في غار ثور فكان أبو بكر حزينًا إشفاقا على النبى ﷺ أن يشعر به المشركون فيصيبوه بمضرة أو يرجعوه إلى مكة"[2].

والقرآن الكريم يعد الصحبة الصالحة الداعية إلى الحق من مقومات الثبات، ويتعجب من حال من معه صحبة مؤمنة ثم ينحرف عن الصواب.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

يقول ابن عاشور: "﴿ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ ﴾ أى رفقة معه حين أضله استهواء الجن ﴿ يَدۡعُونَهُۥٓ ﴾ إلى ما فيه هداه... وقد شبهت بهذا التمثيل العجيب حالة من فرض ارتداده إلى ضلاله الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إياه، وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدونه عنه، بحال الذى فسد عقله باستهواء من الشياطين والجن، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلا عارفا بمسالكها، وترك رفقته العقلاء يدعونه إلى موافقتهم: "وإنما جعل دعاة الهدى أصحابا له باعتبار ما كان عليه قبل إضلال الشياطين له"[4].

والصاحب الضال الكافر على العكس يسعى إلى تشكيك صاحبه في أسس العقيدة.

يقول الله تعالى: ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٣/٦ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٧١ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٨٦/٤ ، ٤٨٧ .

لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝ ﴾[1].

يقول الرازى: "(إنى كان لى قرين) في الدنيا ﴿ يَقُولُ ﴾ لى ﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴾ أى يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى إنا لمحاسبون مجازون. والمعنى: أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الانكار"[2].

ومثل ذلك الصاحب يؤدى بصاحبه إلى الهلاك ونار جهنم والعياذ بالله، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿ لَتُرۡدِينِ ﴾ أى لتهلكنى بأغوائك وقوله: ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ أى فى العذاب"[3].

وقد جاءت الوصية النبوية بمصاحبة المؤمن فعن أبى بن كعب ﷺ أن النبى ﷺ قال: "لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى"[4].

يقول أبو الطيب: "(إلا مؤمنا) أى كاملا أو المراد النهى عن مصاحبة الكفار والمنافقين لأن مصاحبتهم مضرة في الدين فالمراد بالمؤمن جنس المؤمنين"[5] ويستثنى من ذلك بعض الحالات كما في قصة صاحب الجنتين.

قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن

(١) سور الصافات ، الآيات ٥٠ ــ ٥٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢٧/٢٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤٧٤/٤ .

(٤) رواه أبو داود في سننه ــ كتاب الأدب . باب من يؤمن أن يجالس ١٧٩/١٣ ، ورواه الترمذى في سننه ــ كتاب الزهد . باب ما جاء في صحبة المؤمن ، قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ٧٥/٧ ، وقال المباركفورى : وأخرجه أحمد ، والحاكم وابن حبان ، وقال المناوى : أسنيده صحيحه .

(٥) عون المعبود شرح سن أبى داود لأبى الطيب ٧٩/١٣ ، وتحفه الأحوذى شرح جامع الترمذى ٧٦/٧ .

تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

ففى قصة صاحب الجنتين صاحب المؤمن كافرًا محققًا عدة شروط:

(١) قوة الإيمان فقد كان إيمان الرجل قويا ولذا لم يتأثر بكثرة مال الكافر وانبساط الدنيا لديه لاعتزازه بعقيدته ويقينه بفناء الدنيا واضطراب حالها، وتذبذبها، وأن قيمة الإنسان الحقيقية ليست بثرائه وإنما في الإيمان والعمل الصالح أما ما يبهر الناس من مال وجاه فهو زينه دنيوية لا تلبث أن تتحول إلى حطام.

يقول تعالى على لسان الصاحب المؤمن مفصحا عن مخالفته للكافر في اعتقاده: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[2]. والمعنى: "أكفرت بمن فعل هذا أن يعيدك خلقا جديدا بعدما تصير رفاتا ثم استدرك مخبرا عن نفسه: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أما أنا فلا أكفر بربى ولكن أقول هو الله ربى[3]، وقال في موضع آخر معلما لصاحبه الكافر كيفية النظر لنعيم الدنيا، ومقابلة نعم الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾[4].

فبدأ بتعليمه وتذكيره بمن خلقه وأعطاه تلك الجنتين والواجب عليه في مقابلة تلك النعمة ليحفظ عليه النعم.

ثم نبهه ووعظه بأن الدنيا متقلبة إن كنت أنا اليوم أقل منك في المال والولد فقد يمنحنى الله يوما بستانا خيرًا من بستانك ويزيل ما عندك فينتقل حال الغنى

(١) سورة الكهف ، الآيات ٣٢ ــ ٣٨ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبرى منشورات محمد علي بيضون ــ بيروت ٢٥/٨ ، والبحر المحيط ١٢٧/٦ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٣٩ ، ٤٠ .

عنك إلىّ، وتتبدل الأحوال بينى وبينك فلا تنسبن ما عندك من نعم إلى فضلك واستحقاقك الذاتى فإنما هو من عند الله تعالى الذى يعطى ويمنع، ويعز ويذل، ومثل هذا الكلام يشهد بقوة يقين بالمؤمن بالله وتقته بربه، وعدم تأثره بقول الكافر.

(٢) أن يكون الغرض من الصحبة هو النصح والإرشاد وخدمة الإسلام، يظهر هذا من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾.

يقول الألوسى: "جملة حالية، وفائدتها: التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوها كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاوره"[1].

ويقول ابن عاشور: "دل فعل المحاورة على أن صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح فراجعه الكلام بالفخر عليه، والتطاول شأن أهل الغطرسه، والنقائص أن يعدلوا عن المجادلة بالتى هى أحسن إلى إظهار العظمة والكبرياء"[2].

فقد حرص الرجل المؤمن على استغلال محاورة الكلام في دعوة الرجل الكافر، وتصحيح قيمة ومعتقداته، ومثل هذا السلوك لا يتأتى إلا بوجود علاقة، ونشوء صحبة، ولذا أجيزت مصاحبة المؤمن للكافر على وجه النصح لله تعالى، وتعليمه ووعظه مع أمن الفتنة في الدين، والقوة في اليقين والعلم والمحاجة والمحاورة والتوجيه فمن خلالها يتحقق للمؤمن أغراض عدة:

(أ) تعرفه على منكرات الصاحب وأسباب وقوعه فيها، ومن ثم يمكنه تقويمها ومعالجتها، واستماله قلبه نحو الخير.

(ب) فتح مجالات مختلفة في الحوار يمكن للمؤمن من خلالها توصيل قيم الإسلام ومبادئه.

وتدل الآيات على أن الكافر قد انتفع بنصيحة المؤمن، وإن تأخر وقتها إلى بعد زوال جنته.

قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

(١) روح المعانى للألوسى ٢٧٣/١٥ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١٥ .

عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾[1].

يقول ابن عاشور: "وجملة ﴿ وَيَقُولُ ﴾ حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب، وهذا ندم على الإشراك فيما مضى، وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده"[2].

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٧/١٥ .

المطلب الثالث
استقامة السلوك

من الصفات التى ترغب في الصحبة استقامة السلوك ويضادها الغواية والاعوجاج، ولذا نفاها الله سبحانه وتعالى عن نبيه ﷺ تحبيبا في صحبته.

قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1].. "والغى: الجهل والفساد"[2]... ويفارق الغى الضلال في "أن الضلال يكون عن الدين والغى فيه"[3].

يقول ابن الخطيب: "المراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقا أصلا، والغواية أن لا يكون له طريق إلى القصد مستقيم ومما يدل على هذا قولك للمؤمن الذى ليس على طريق السداد: إنه سفيه غير رشيد، ولا تقول: إنه ضال، فالضال كالكافر والغاوى كالفاسق[4]، فكأنه تعالى قال: ما ضل أى ما كفر، ولا أقل من ذلك فما فسق"[5].

فالغى أن يجهل في أفعاله، ويأتى بأفعال فاسدة منافيه لدينه الذى اهتدى إليه وهى على ذلك تضاد الاستقامة إذ الاستقامة: "كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات"[6].

وفى صحبة أهل الاستقامة يقول تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾[7].

يقول الألوسى: " الصبر: الشد بالمكان بحيث لا يفارقه، والتعبير عنهم

(١) سورة النجم ، الآية ٢ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "غوى" ، بصائر ذوى التمييز ١٥٦/٤ .

(٣) الفروق اللغوية ص١٧٦ ، ١٧٧ .

(٤) الفاسق : من شهد ولم يعمل واعتقد . التعريفات للجرجانى ص١٦٤ .

(٥) اللباب في علوم الكتاب ١٥٦/١٨ ، ومفاتيح الغيب للرازى /١٩٦ .

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقى ، دار الكتاب العبى ــ بيروت ١٠٥/٢ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم أى لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة"[1].

ففى الآية أمر بملازمة الذين يطيعون الله بالليل والنهار ويحرصون على مرضاته ويطلبون ثوابه فى هم التعبدية، أو معاملاتهم أخلاقية، أو تعميرًا للكون بالصلاح والخير وغير ذلك مما أمرنا الله به.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2].

يقول أبو حيان: "قال الضحاك اللفظ أعم من صدق الحديث، وهو بمعنى الصحبة في الدين، والتمكن في الخير... و ﴿ مَعَ ﴾ تقتضى الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف"[3].

يقول الإمام الغزالى: "وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته لأنه لا يخاف الله لا يصبر على طاعة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الاغراض"[4].

إن مخالطة ومصاحبة الفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها.

وقد حذر ﷺ من تأثير جلساء السوء فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شئ أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده، أصابك من دخانه"[5].

قال أبو الطيب: "صاحب الكير ــ بكسر الكاف ــ زق ينفخ فيه الحداد، وأما المبنى من الطين فكور، أى: كمثل نافخه، وفى الحديث: إشارة إلى الرغبة في صحبة الصالحين والعلماء ومجالستهم فإنها تنفع في الدنيا والآخرة، وإلى الاجتناب عن صحبه الأشرار والفساق فإنها تضر دينا ودنيا"[6].

(١) روح المعانى للألوسى ١٥/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٩ .
(٣) البحر المحيط ٦/٢٤٣ .
(٤) إحياء علوم الدين ٢/١٥٦ .
(٥) رواه أبو داود في سننه ــ كتاب الأدب . باب من يؤمن أن يجالس ١٣/١٧٧ عون المعبود .
(٦) عون المعبود شرح سنن أبى داود لأبى الطيب ١٣/١٧٨ .

المطلب الرابع
أسس الاختيار في الميزان

أوضح الله سبحانه وتعالى لعباده صفات الصاحب الصالح الذى ينفعهم في شئون دينهم ودنياهم متمثلة في شخص نبيه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[2]، وذلك لكونها صفات كمال ومثالية لا يبلغها إلا القليل من الناس.

ولكن الإسلام وهو يدعو الناس إلى الاقتراب من المثالية والكمال في أفعالهم واختيارهم يؤمن بالواقع.

يقول الدكتور يوسف القرضاوى: "الإسلام ينشد الفرد المسلم المثالى... ولكنه ــ مع هذه الدعوة إلى المثالية ــ لا ينسى الواقع الذى يحياه الناس ويهبطون إليه، فهو يعالج هذا الواقع نظريا، ويعالجه عمليا، يعترف به، ولكنه يحاول أن يرقى بالإنسان ليعلو عليه بإيمانه وأخلاقه ومثله وأهدافه الكبرى في الحياة"[3].

"والخطاب الدينى الموفق هو الذى يراعى واقع الناس الذى يضغط عليهم، وضعفهم أمام هذا الواقع، ويراعى ضرورات الناس التى يباح بها المحظورات، وحاجاتهم التى كثيرًا ما تنزل منزلة الضرورات"[4].

والمرء يقابل في سعيه لقضاء أمور حياته أصنافًا من البشر تضطره ظروف الحياة لصحبتهم، ولا تتوافر فيهم هذه الصفات التى ينشدها الإسلام في الصاحب كما يتواجد في المجتمع المسلم أفرادًا من غير المسلمين. فكيف يكون صنيعه معهم؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتحدد في ضوء عدد من الحقائق:

(١) أن الأشخاص يتفاوتون فيما بينهم، فمنهم من هو قوى العقيدة، لديه من قوة الشخصية والثقة بالنفس ما يمكنه من الاحتكاك بالآخرين والتأثير فيهم من دون أن يتأثر، وهكذا وجدنا المؤمن في قصة صاحب الجنتين في سورة "الكهف"

(١) سورة النجم ، الآية ٢ .
(٢) سورة التكوير ، الآية ٢٢ .
(٣) خطابنا الإسلامى في عصر العولمة د/ يوسف القرضاوى دار الشروق ص١١٢ .
(٤) المرجع السابق ص١١٨ .

كما وجدناه مع قرينه في سورة "الصافات".

ومن الأشخاص من هو ضعيف الإيمان، ضعيف الشخصية سريع التقلب والتأثر فعليه لزوم الصحبة الصالحة.

(٢) تتعدد أغراض الصحبة، فالناس تنشد من وراء مصاحبة الآخرين أغراض عده منها:

الاستئناس، التعليم، والتعلم، الانتفاع بالمال والجاه أو النصح والإرشاد".

وهذا الغرض قد تزداد أهميته ويكون ضروريا كضرورة التعلم من غير المسلمين علما لا يتوفر عند المسلمين بعينه أو بصفته[١] والحاجة للانتفاع بغير المسلمين في نصرة بعض قضايا المسلمين[٢] والصحبه بغرض الدعوة والإرشاد وغير ذلك.

ويشترط لهذه الصحبة الضرورية ألا تعلو على ضرورة الحفاظ على الدين فلا يُقدم الفرد على صحبة يغلب على علمه أنها تؤثر على علاقته بربه، وتضره في دينه.

وعلى ولاة الأمر ألا يصدروا لها إلا قوى العقيدة مع إيجاد صحبة مؤمنه موازنة لصحبته تلك تقوم سلوكه إذا أعوج، وتنصحه إذا ركن ومال كما قال تعالى: ﴿ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا ﴾[٣].

(٣) ظروف نشأة الصحبة فهناك صحبه اضطراريه لا يملك المرء حرية الاختيار في نشوئها كصحبة الوالدين، والأولاد، والزوجة[٤] ــ إذا تبدل سلوكها ــ بعد الزواج، وصحبة العمل.

وهناك صحبة مكتسبه: يملك المرء حرية الاختيار في نشوئها من عدمه.

(١) من أمثلة ذلك : البعثات العلمية في الخارج .

(٢) يحتاج المسلمون في ظل ضعفهم الحالى إلى تكوين رأى عام مناصر للمسلمين في بلاد الغرب ، وقد تجلى ذلك في قوافل الحرية التى قدمت لفك الحصار عن غزة ، وقد كان فيها مسلمين وغير المسلمين من مختلف الطوائف والأديان .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٧١ .

(٤) سيأتى الحديث عن هذا الموضوع بالتفصيل تحت عنوان الصحبة الأسرية في الباب الثانى .

موقف المرء: وحسب نوع الصحبة يتحدد موقف المرء منها فى ضوء ما سبق بيانه في أنواع الصحبة، وعوامل تكوينها فلو كان أحد أفراد الصحبة الاضطرارية كافرًا أو فاسقا وخشى المرء على نفسه التأثر فليقلل من درجة الصحبة ويبقيها في حدود المخالطة والالتقاء العابر المقتضب الذى يوفى بحق الصحبة والبر والعشرة بالمعروف دون أن يولد حبا أو مودة، وبهذا تكون الصحبة أقرب للمعنى اللغوى القائم على الملازمة المكانية خلافا للصحبة العرفية التى يجتمع فيها التلازم مع طول العشرة مما يولد تالفا ومودة، وإن كانت الصحبة اختيارية وخشى على نفسه التأثر بأفعال صاحبه قطع العلاقة معه بتجنب اللقاءات والأماكن المعهودة لهما، وإنهاء الأعمال المشتركة معه.

المبحث الرابع
صور الصحبة في القرآن الكريم

أورد القرآن الكريم صورا للصحبة موضحا آدابها لتكون مثالا يحتذى، وأسوة تتبع... **وهى:**

المطلب الأول
صحبة الأنبياء

وصحبة الأنبياء صحبة اصطفائيه يمنحها الله لمن يشاء من عباده، ذلك أن صحبة الأنبياء لا تتحقق إلا بأحد أمرين:

(١) الالتقاء بالنبى عليه الصلاة والسلام ورؤيته.

(٢) اتباع النبى عليه الصلاة والسلام في دينه.

فأما الالتقاء بالنبى ﷺ ورؤيته فلا يملك المرء فيه حيلة فالله سبحانه وتعالى يخلق ويوجد في كل زمان ومكان من يشاء.

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[١].

(١) سورة القصص ، الآية ٦٨ .

فلله المنفرد بالخلق أن يخلق من يشاء، ويختص من يشاء بما يشاء "فيختار من يشاء لنبوته، ويختار من يشاء لصحبتهم، ويختار الأنصار لدينه"[1].

فالمراد بالاختيار في هذه الآية الاجتباء والاصطفاء، وهو لله سبحانه وليس لأحد من خلقه، ولذا قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾.

يقول الإمام ابن القيم: وأصح القولين[2] ان الوقف التام على قوله: ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ويكون ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ نفيا، أى ليس هذا الاختيار إليهم بل هو إلى الخالق فكما أنه المنفرد بالخلق فهو المنفرد بالاختيار منه فليس لأحد أن يخلق ولا أن يختار سواه فإنه سبحانه أعلم بمواقع الاختبار، ومجال الرضا، وما يصلح للاختيار، وما لا يصلح، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه"[3].

ويؤكد على أهمية اللقاء بالنبى ورؤيته كشرط للصحبة ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنّا إن شاء الله بكم لا حقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا".

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: أنتم أصحابى، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد"[4].

يقول النووى: "يقول الباجى: قوله ﷺ: بل أنتم أصحابى، ليس نفيا لأخوتهم، ولكن ذكر مرتبتهم الزائدة بالصحبة فهؤلاء أخوة وصحابة، والذين لم يأتوا إخوة ليسوا بصحابة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[5]"[6]. والمحل الفاصل بين المرتبتين هو رؤيته ﷺ.

(١) تفسير النكت والعيون للماوردى ٢٦٢/٤ .

(٢) القول الثانى في معنى "ما" : أن "ما" موصولة ، والمعنى : ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة ، ينظر تفسير النسفى ٢٤٣/٣ ، فتح القدير ١٨٢/٤ ، ١٨٣ .

(٣) زاد المعاد لابن القيم ٣٦/١ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ــ كتاب الطهارة . باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ١٢٧/٣ شرح النووى .

(٥) سورة الحجرات ، الآية ١٠ .

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم ١٣١/٣ ط . دار المعرفة ، بيروت ــ لبنان .

وقد عنون البخارى عند تعريفه بالصحابى في مقدمة كتاب: "فضائل أصحاب النبى ﷺ فقال: "من صحب النبى ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه"[1].

وشرح ابن حجر شرط الملاقاة بقوله: وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابى من لقى النبى ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يروا، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ومن لم يره لعارض العمى[2].

ومما يؤكد على أهمية اللقاء في صحبة الأنبياء أن موسى ﷺ عندما رغب في صحبة الخضر ﷺ بحث عن مكانه حتى لقيه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ ﴾[3].

﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ ﴾[4].

والمقصود بالوجود في ﴿ فَوَجَدَا ﴾ "وجود البصر"[5].

أما الأمر الثانى الذى تتحقق به الصحبة فهو اتباع النبى ﷺ وهو من هداية الله التى يهبها لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[6] فليس كل من رأى النبى ﷺ آمن به بل كان له أعداء مكذبون كما كان له أتباع وأصحاب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٣/٧ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١٠/١ ط . مصطفى محمد . مصر، ط/ المكتبة التجارية ٣٧٤/٦ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٦٠ ، ٦١ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) المفرادات للراغب ص٥١٢ ، ٥١٣ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1].

وبنو إسرائيل لم يسمهم الله أصحابا لموسى إلا عندما اتبعوه وأطاعوه في الخروج من مصر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[2].

وهذا هو الشرط الثانى الذى ذكره البخارى لصحبة النبى ﷺ بقوله: "من المسلمين" وهو غير مطلق على عنانه؛ بل يراد به حسن الاتباع فليس مجرد نطق الشهادتين كاف في الاعتداد بصحبة المرء للنبى وإلا عدّ عبد الله بن أبى بن سلول[3] من الصحابة، وهو ما لم يقل به أحد، وإنما الصحيح ما ذكره ابن حجر بقوله: "مؤمنا" وشتان ما بين الإيمان والإسلام، فالإيمان الكامل اتباع بالعمل، ومؤزارة ومناصرة على ما تقتضيه العشرة، وبذلك يخرج كل من ادعى الإسلام وأبطن خلافه، أو سعى في إيذاء النبى ﷺ أو تخلف عن نصرته في دعوته، أو تواطأ مع أعدائه، أو تعمد إيذاءه، وعلى رأس هؤلاء المنافقون.

وأرى أنه من أجل هذا المغزى، وإظهارًا للتمايز بين الصحبة الحقة، وصحبة المنافقين الظاهرة جمعت سورة "التوبة" بين الثناء على أبى بكر الصديق ﷺ، وهو في الغار مع النبى ﷺ، وباقى المهاجرين الذين أزروه ساعة العسرة في مقابل ذم المخلفين الذين تخلفوا عن مناصرة النبى ﷺ.

وإنما جعلت رؤية الأنبياء عليهم السلام واتباعهم أساسا في صحبتهم لأنهما يمكنان الأصحاب من الاحتكاك بصفوة الخلق في حياتهم، ومقاسمتهم أعباء دعوتهم، ومجالستهم في مجالسهم، فيتربوا على أيديهم، ويقتبسوا من نورهم، ويسيروا على طريقهم وهديهم.

يقول الشيخ الغزالى: "إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء ووسائل الارتقاء، إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب، وعواطفك تسمو عند ما تقرأ البطولة الرائعة، بل إن الذين

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٠ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٦١ .
(٣) فتح البارى ٤/٧ .

يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصنعهم جو القصة المفتعلة فما ظنك بقوم يتبعون رجلا تكلمه السماء، ويتفجر من جوانبه الكمال، ويسكب على من حوله آيات الطهر، فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة، نقاها لهم وأبعدهم عنها"[1].

وقد وجدت هذه الصحبة المؤمنة مع كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فلنوح ﷺ صحبة مع أتباعه المؤمنين الذين ركبوا معه في السفينة قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

وجعل الله إبراهيم ﷺ وأصحابه أسوة لمن بعدهم قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3].

يقول الرازى: "أخبر الله تعالى أن إبراهيم وأصحابه تبرأوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم: إنا برءاؤا منكم، وأمر أصحاب رسول الله ﷺ أن يأتسوا بهم وبقولهم"[4].

ولموسى ﷺ أصحاب خرجوا معه من مصر فرارًا من فرعون وجبروته.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[5].

ومرَّ عيسى ﷺ بقوم فدعاهم إلى نصرته واتباع ملته فأجابوه وقاموا بذلك خير قيام وصبروا في ذات الله[6] فاستحقوا اسم الحواريين الذى يدل على الصفاء والاخلاص. يقول الرازى: "حوارى الرجل: صفيه وخلصاؤه من الحور وهو البياض

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص١٩٨ ، دار الكتب الحديثة .
(٢) سورة هود ، الآية ٤٠ .
(٣) سورة الممتحنة ، الآية ٤ .
(٤) مفاتيح الغيب ٤٩٧/٣٠ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية ٦١٤ .
(٦) المحرر الوجيز ٤٤٣/١ .

الخالص"[1].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾[2] فأصحاب عيسى عليه السلام هو حواريه.

وأكرم الله تعالى رسوله ﷺ بأصحاب فاقوا كل أصحاب الأنبياء جهادًا وتضحية قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[3].

ومن أفضل هؤلاء الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذى هاجر مع النبى ﷺ من مكة ولازمه في غار "ثور" قال تعالى: ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

يقول البقاعى: "﴿ إِذۡ يَقُولُ ﴾ أى رسول الله ﷺ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ أى أبى بكر رضي الله عنه وثوقا بربه غير منزعج من شئ... وفي هذه الآية من التنويه بمقدار الصديق، وتقدمه وسابقته في الإسلام وعلو منصبه، وفخامة أمره ما لا يعلمه إلا الذى أعطاه إياه، قال العلماء: من أنكر صحبه أبى بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة"[5].

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/٥٢٣ .
(٢) سورة الصف ، الآية ١٤ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/٤٧٤ ، ٤٧٥ .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ: "إن أمنّ الناس علىّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر"[1].

وأثنى الله تعالى على صحابة رسول الله ﷺ في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾[4].

وقال جل شأنه: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ ﴾[5].

وقد أظهرت هذه الآيات وغيرها مما سبق الصفات الكريمة والأفعال العظيمة التى قام بها الصحابة، **ومن أبرز هذه الصفات:**

(١) السبق في دخول الإسلام ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾.

(٢) التضحية بالمال حتى خرج المهاجرون من مكة تاركين وراءهم ديارهم

(١) رواه البخارى في صحيحه ــ كتاب فضائل الصحابة . باب قول النبى ﷺ : "سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر ٧/١٢ فتح البارى .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٧ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٠ .
(٤) سورة الفتح ، الآية ١٨ .
(٥) سورة الحشر ، الآية ٨ ، ٩ .

وأموالهم، وأحسن الأنصار من أهل المدينة استقبالهم، وقاسموهم الديار، والأموال، والزوجات.

(٣) نصرة الرسول ﷺ في المواقف والغزوات حتى ولو كانوا في شدة كما حدث في ساعة العسرة والمراد بها غزوة "تبوك".

(٤) الشدة والحزم في مواجهة الكفار ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾.

(٥) التراحم والتآخى والتآلف فيما بينهم ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

وقد كان جزاء تلك الصحبة النبوية التى تلاقت على الإيمان بالله، ونصرة الحق، وتعاضدت وتآلفت أن تتواصل صحبتهم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2]. يقول ابن عاشور: "﴿ يَوْمَ ﴾ يوم القيامة وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزى الله عنهم تعريض بأن الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله، والخزى: هو عذاب النار يقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3]، ومعية المؤمنين مع النبى ﷺ صحبتهم له، وفى هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبى ﷺ"[4].

وقبل ذلك نجاة من شدائد الدنيا، وخلاص من مكائد الأعداء قال تعالى:

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة التحريم ، الآية ٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٨ ، وهو مخصوص بغير الذين ارتدوا وماتوا على الكفر ، المرجع السابق ٣٧٠/٢٨ .

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾[2].

المطلب الثانى
الصحبة الأسرية

وهى الصحبة التى تركز على الأسرة وتنشأ بسببها قبل أن تتعضد وتقوى بمؤثرات أخرى. والأسرة تكبر وتتشعب بطريقين: بالمصاهرة، والرحم.

"والمصاهرة أو الصهر: القرابة بسبب الزواج، يقال: صاهرت القوم إذا تزوجت فيهم"[3].

ومن أبرز الأصحاب الذين يوجدون بالمصاهرة: الزوجة، وأخواتها، وأزواج الأخوة، وأزواج الأبناء...

وقد سمى الله العلاقة الزوجية صحبة فقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾[4].

أما "الرحم، فالمراد به: الأقارب لكونهم يرجعون في الغالب إلى رحم واحد"[5].

وتوفر هذه الرابطة للشخص عددًا من الأصحاب كصحبة الوالدين، والأولاد، والأخوة، وأولاد الأخوة، وأولاد الأعمام... الخ.

وقد أشار سبحانه إلى صحبة الوالدين التى تندرج تحت هذا النوع فقال سبحانه: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[6].

وإنما اكتفى سبحانه بالإشارة إلى صحبه الزوجة والوالدين والأولاد دون غيرهما لأنهم أشد الناس قربا، وملازمة للإنسان، وهما بداية عائلته، ومما يؤكد ذلك

(١) سورة الأعراف ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١١٩ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ٢٥١٥/٤٤ .

(٤) سورة عبس ، الآيات ٣٤ ــ ٣٦ .

(٥) بصائر ذوى التمييز ٥٨/٣ ، تفسير المنار ١٠١/١٠ ، تفسير القرطبى ١٢/٣ .

(٦) سورة لقمان ، الآية ١٥ .

أنه سبحانه عندما أراد أن يصور شدة هول العذاب يوم القيامة، وشدة وقعه على المرء بحيث يدفعه لطلب النجاة، ولو اقتضى ذلك أن يفرط في أشد الأشخاص قربا ابتدأ بالأبناء والزوجة لقربهم له، قال تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ ﴾[1].

يقول ابن عاشور: "رتبت الأقرباء على حسب شدة الميل الطبيعي إليهم في العرف الغالب لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة"[2].

وتحتاج الصحبة الأسرية لكي تتوطد، وتتحول إلى ألفة ومودة إلى عدة عوامل أهمها:

العامل الأول: الحرص على التلاقي والاجتماع:

يغفل كثير من الناس سواء في أسرهم الصغيرة أو الكبيرة عن هذا الأمر فيستغرق الأباء في أعمالهم فلا يلتفتون إلى غياب أوقات للجلوس والحوار يلتف حولها أفراد الأسرة مما يولد التنافر والتقاطع.

وقد وصى النبى ﷺ بعضا من الشباب على الرجوع إلى أهليهم والاجتماع معهم لئلا يطول غيابهم عنهم. فعن أبى سليمان مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا النبى ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رفيقا رحيما، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتمونى اصلى، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم"[3].

ويفهم من قوله: "فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركنا في أهلنا" حرص النبى عليه الصلاة والسلام على ألا يبتعد هؤلاء الشباب عن أهلهم حتى لا يفتقدوهم، وجعل لهم أجرًا في الاجتماع بهم، وتعليمهم دين الله والصلاة معهم.

وتتعدد الاجتماعات التى توطد علاقة الصحبة داخل الأسرة:

(١) سورة المعارج ، الآيات ١١ ــ ١٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٦١/٢٩ .

(٣) رواه البخارى في صحيحه ــ كتاب الأدب . باب رحمة الناس والبهائم ٩٨/١٠ ، فتح البارى .

فمنها الاجتماع على الطعام فجعل إطعام الطعام مناسبة تولد المودة والمحبة، وتقوى الروابط بين الأفراد، ولذا أباح الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الأكل من بيوت أقاربهم بدون دعوة وألا ينظروا إليها نظرهم إلى غيرها، ورفع عنها الحرج الذى في غيرها قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ويدخل في قوله: ﴿ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ بيوت الأولاد[2] لأن الولد بعض أبيه.

يقول ابن عاشور: "المقصود بالأكل هنا الأكل بدون دعوة وذلك إذا كان الطعام محضرًا دون المخزن، وهؤلاء المعدودن في الآية بينهم من القرابة أو الولاية أو الصداقة ما يعتاد بسببه التسامح بينهم في الحضور للأكل بدون دعوة لا يتحرج أحد منهم من ذلك غالبا".

وتزيد عملية الأكل والإطعام روح الصحبة بالاجتماع على الطعام إذ أن تحديد موعد للطعام، ودعوة الأسرة إليه، وإجابة الأفراد لهذه الدعوة يقوى الصحبة لأنه يوصل رسالة إلى جميع الأفراد بأهميتهم عند بعضهم البعض.

يقول "ستيفن كوفى": "عن طريق التقاليد تعزز صلة الأسرة وتعطى شعورًا بالانتماء، والدعم والفهم، وأن كل فرد ملتزم تجاه الآخر، وأنت جزء من شئ أكبر من نفسك، فأنتم داخل الأسرة تعبرون وتبدون الولاء ــ كل للآخر، فأنت بحاجة إلى أن تشعر بأن هناك من يحتاج إليك، وبحاجة لأن تكون شخصا مرغوبا فيه، ومن ثم تكون سعيدًا لأنك جزء من العائلة"[3].

وحتى لا تقف العقبة المادية عائقا أمام الاجتماع الأسرى على الطعام، جعل الله الاجتماع سببًا لبركة الطعام وكفايته لما لا يستوعبه في وقت الانفراد.

فعن أبى هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "طعام الاثنين كافى الثلاثة،

(١) سورة النور ، الآية ٦١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

(٣) العادات السبع للأسر الأكثر فاعليه "ستيفن كوفى" ص٣٢٠ مكتبة جرير .

وطعام الثلاثة كافى الأربعة"[1].

ويراد بهذا الحديث "الحض على المكارم والتقنع بالكفاية"[2].

ومن صور الاجتماع **كالاجتماع على دروس العلم لاسيما مدارسة القرآن.**

فعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"[3].

قال أبو الطيب: "(في بيت من بيوت الله) أى المسجد وألحق به نحو مدرسة أو رباط: (يتلون كتاب الله ويتدارسونه) أى يشتركون في قراءة بعضهم على بعض ويتعهدونه خوف النسيان: (إلا نزلت عليهم السكينة) فعيلة من السكون للمبالغة والمراد هنا الوقار والرحمة أو الطمأنينة (وحفتهم الملائكة) أى أحاطت بهم ملائكة الرحمة (وذكرهم الله) أى أثنى عليهم وأثابهم فيمن عنده من الأنبياء وكرام الملائكة"[4].

وللمرء أن يتخيل كيف يكون حال أسرة تحيط بها الرحمة، وتتخللها السكينة، وتحفها الملائكة؟ وكيف هى الرابطة والمودة بين أفرادها؟

اجتماعات أخرى:

وهناك اجتماعات في المناسبات الخاصة بالأسرة، كمناسبات النكاح، والعقيقة، والأعياد، وقد حث النبى ﷺ كل فرد على إجابة الدعوة ما لم تقترن بمعصية.

فعن عبد الله بن عمران ﷺ عن النبى ﷺ: "إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها"[5].

والوليمة: "طعام العرس والإملاك، وقيل: كل طعام صنع لعرس وغيره"[6].

---

(١) رواه البخارى في صحيحه ــ كتاب الأطعمة . باب طعام الواحد يكفى الاثنين ٥١٩/٩ ، فتح البارى .

(٢) فتح البارى ٥١٩/٩ .

(٣) رواه أبو داود في سننه ــ كتاب الوتر . باب في ثواب قراءة القرآن ٣٢٨/٤ .

(٤) عون المعبود شرح سنن أبى داود لأبى القيم ٣٢٨/٤ .

(٥) رواه أبو داود في سننه ــ كتاب الأطعمة . باب ما جاء في إجابة الدعوة ٢٠٢/١٠ .

(٦) لسان العرب ٤٩١٩/٦ .

غاية دينية:

العامل الثانى: وجود غاية مشتركة تتفرع عنها أعمال مشتركة ومن أسمى الغايات التى يتلاقى عليها أفراد الأسرة إرضاء الله سبحانه وتعالى طمعًا في مثوبته، واتقاء لسخطه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[1].

يقول مجاهد ﷺ: "قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم"[2].

وحث عليه الصلاة والسلام على التواصى بين أفراد الأسرة. فعن عبد الملك بن الربيع عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال: قال النبى ﷺ: "مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها"[3].

ــ وعندما يغيب هذا الهدف الدينى السامى المشترك بين الأسرة يحدث شرخا تضعف معه علاقة الصحبة.

حدث هذا مع إبراهيم ﷺ وأبيه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾[4].

وحدث مع نوح وابنه قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝ ﴾[5].

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠٦/١٩ .

(٣) رواه أبو داود ــ كتاب الصلاة . باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ٢٠/٢ . قال المنذرى : الحديث أخرجه
الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١١٤ .

(٥) سورة هود ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجد هذا الشرخ بين نوح ولوط وزوجتيهما، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[1].

وإذا كان الخلاف في العقيدة يوجب العداوة والبغضاء كما وقع التبرؤ من إبراهيم ﷺ لأبيه: "وهو التخلى عنه، والخلاص من مخالطته وملابسته"[2] ووقعت الخيانة من امرأتى نوح ولوط عليهما السلام فكانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه"[3].

فإن الإسلام يأمر أتباعه باستمرار الصلة والبر والعطاء الجسدى والمادى من خدمة، ورعاية، ونفقة، وهبة للوالدين، وفضلا المعاملة الحسنة.

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[4].

يقول البيضاوى: "(معروفا) صحبة معروفة يرتضيها الشرع ويقتضيها الكرم"[5].

يقول ابن عاشور: "لم يترك القرآن مادة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلا بين واجبهم فيها بما يناسب إيمانهم، ومن أشد تلك العلائق علاقة النسب، فالنسب بين المشرك والمؤمن يستدعى الإحسان وطيب المعاشرة ولكن اختلاف الدين يستدعى المناواة والمغاضبة ولاسيما إذا كان المشركون متصلبين في شركهم، ومشفقين من أن تأتى دعوة الإسلام على أساس دينهم، فهم يلحقون الأذى بالمسلمين ليقلعوا عن متابعة الإسلام، فبين الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أقربائه المشركين، وخص بالذكر نسب الوالدين لأنه أقرب نسب فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذى يشرع له"[6].

(١) سورة التحريم ، الآية ١٠ .
(٢) ينظر لسان العرب ٢٤٠/١ ، ٢٤١ ، التحرير والتنوير ١٤٤/٢٨ .
(٣) فتح القدير ٧/٩ .
(٤) سورة لقمان ، الآية ١٥ .
(٥) تفسير البيضاوى ٤١٩/٧ .
(٦) التحرير والتنوير ٤٦٣/١٠ .

وتحت هذا الهدف الدينى السامى اشترك إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام في بناء الكعبة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1][2].

وطلب موسى ﷺ من الله تعالى أن يشرك معه أخاه هارون ﷺ في الرسالة لأن قوة الرابطة بينهما تنعكس على إنجاح العمل.

قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

قال ابن عاشور: "اجعل لى معينا من أهلى، وخص هارون لفرط ثقته به، ولأنه كان فصيح اللسان، مقوالا، فيكون من أهله مظنة النصح له، وهو أقوى في المناصحة لكونه أخاه، ولأنه معلوم عنده بأصالة الرأى"[4].

غاية أسرية خاصة:

وفضلا عن تلك الأعمال الدينية هناك أعمال اجتماعية تربط بين الأسرة كتربية الأبناء، فإنها من أقوى الأعمال التى تجمع بين الوالدين، وتقوى رابطة الصحبة بينهما.

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[5]. فقد نسب الله فعل التربية ﴿ رَبَّيَانِى ﴾ لهما على التساوى لاشتراكهما معا في ذلك.

غاية رياضية:

وقد يكون ذلك العمل عملا ترويحيا رياضيا.

فعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع النبى ﷺ في سفر فسابقت النبى ﷺ

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ .
(٢) التحرير والتنوير ٢١٢/٢١ .
(٣) سورة طه ، الآيات ٢٩ ــ ٣٤ .
(٤) التحرير والتنوير ٢١٢/١٦ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية ٢٤ .

فسبقته على رجلى، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى فقال: هذه بتلك"[1].

ويدخل تحت هذا العمل الترويحى اللعب مع الأطفال "فإنه من الأمور الهامة لإقامة علاقة قوية بين الآباء وأولادهم أن يقضوا معا وقتا مسليا ومريحا... إذ يقربهم من بعضهم، ويمكن أثناء اللعب وخاصة مع الأولاد الكبار أن يبوح الأولاد لآبائهم عما في نفوسهم من قلق أو تخوف أو أمر يزعجهم، وبذلك يتمكن الآباء من التعرف القريب والحقيقى على أولادهم"[2].

وقد كان شأن النبى ﷺ مداعبة الصبيان، وإتاحة الجو لهم ليلعبوا.

فعن عبد الله بن شداد عن أبيه رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا رضى الله عنهما، فتقدم، ثم كبر للصلاة فصلى، فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها.

قال أبى: فرفعت رأسى، وإذا الصبى على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودى.

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهرانى صلاتك سجدة اطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك.

قال ﷺ: "كل ذلك لم يكن، ولكن ابنى ارتحلنى، فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته"[3].

وعن أهمية العمل المشترك بين أفراد العائلة وأثره على روح الأسرة، يقول ستيفن كوفى: "إن أى نشاط تجديدى يحدث في الأسرة يبنى علاقة جديدة فعلى سبيل المثال، أعضاء الأسرة الذين يتدربون معا لا يبنون قوتهم البدنية الفردية وقوة تحملهم فقط بل نراهم يترابطون بشكل متزايد عن طريق هذا النشاط البدنى، وأعضاء الأسرة

(١) رواه أبو داود في سننه ــ كتاب الجهاد . باب في السبق على الراحلة ٢٤٣/٧ . حملت اللحم : سمنت عون المعبود ٢٤٣/٧ .

(٢) دليل تدريب الآباء في تربية الأبناء . د/ مأمون مبيض اختصاصى الطب النفسى . المكتب الإسلامى ص٩١ ، ٩٥ بتصرف .

(٣) رواه النسائى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ... ٱلْمَرَافِقِ ﴾ . باب هل يجوزان تكون سجدة أطول لمن سجده ٥٧٩/٢ . قال الألبانى : صحيح .

الذين يقرأون معا يضاعفون من تعلمهم وترابطهم من خلال النقاش والتعاون وتبادل الأفكار، وأعضاء الأسرة الذين يصلون ويخدمون بعضهم البعض يقوون إيمان بعضهم، وأيضا إيمانهم، ويصبحون أكثر اتحادًا، واتصالا، فهم مشتركون معا في تعبير عن الأشياء الهامة لهم جميعا"[1].

العامل الثالث: التراحم:

وصى الله الأولاد على البر بالوالدين وضمن ذلك الدعاء لهما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[2].

وتدل هذه الآية على أمرين:

(١) أن الأولاد مأمورون بالرحمة بوالديهم، ولكن لما كانت رحمة الأولاد لا توفيهما ما يستحقانه من الرحمة أمر بالدعاء لهما بالرحمة ليوفيهما الله ما عجز عنه الأولاد.

(٢) أن من أسباب استحقاقهما للرحمة سبق رحمتهما بولدهما وهو صغير.

يقول أبو حيان: "الكاف للتعليل أى: ارحمهما لتربيتهما لى وجزاء على إحسانهما إلىّ حال الصغر والافتقار، أو الكاف في محل نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: رحمة مثل رحمتهما"[3].

الرحمة سلوك متبادل:

ــ **فالرحمة** كما تدل الآية سلوك يبدأ به الآباء ثم يتعلمه منهم الأبناء ليردوهم لهم في كبرهم وينشروه فيمن حولهم.

وهى "رقة في القلب تقتضى الإحسان للمرحوم"[4] وهى بهذا تقوم على جانبين: جانب شعورى، وجانب سلوكى.

فالجانب الشعورى يتطلب إحساس كل فرد في الأسرة بمشاعر الآخرين، واحتياجاتهم فيمنح كل فرد حقه من الحب والثقة، والحنان، والانتماء الأسرى،

(١) العادات السبع ص٣١٩ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٤ .

(٣) البحر المحيط ٢٨/٦ ، ٢٩ . تفسير البيضاوى ٤١/٦ .

(٤) بصائر ذوى التمييز ٥٣/٣ .

والقبول الاجتماعى، والوفاء بالجميل، وتقدير الصنيع.

والجانب السلوكى يتطلب إيصال كل عمل يمكنه أن يدعم هذا الشعور القلبى، ويبرزه للعيان بتبادل العواطف والكلمات ومشاركة الأفراح، والمواساة في أوقات الأحزان.

وبتضافر كلا الجانبين يتم التراحم داخل الأسرة، يدل على ذلك أن النبى ﷺ قال: لمن لم يُقَبِل ولده ويشبع حاجته النفسية للحب: "من لا يَرْحم لا يُرْحم". فعن أبى هريرة ﷺ قال: قبل رسول ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يرحم"(١).

يقول الحافظ ابن حجر ﷺ: "في جواب النبى ﷺ للأقرع إشارة إلى أن تقبيل الولد وغيره من الأهل والمحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة لا للذة والشهوة، وكذا الضم والشم والمعانقة"(٢).

صور الرحمة:

— ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام، والسقى، والتخفيف في الحمل، وترك التعدى بالضرب"(٣).

ومن الرحمة بالوالدين طاعتهما وتفقد أحوالهما، ورعايتهما والنفقة عليهما، وشكرهما على نعمة الإيجاد الصورى، ونعمة التربية والرحمة، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ

(١) رواه البخارى في صحيحه — كتاب الأدب . باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٤٨٥/١٠ فتح البارى .
(٢) فتح البارى لابن حجر ٤٨٩/١٠ .
(٣) فتح البارى لابن حجر ٥٠١/١٠ .
(٤) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ ، ٢٤ .

كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾(٢).

— ومن الرحمة بالأقارب والأرحام زيارتهم، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عنهم في أوقات ضروراتهم، ومشاركتهم في الخيرات وإيصال نوع من أنواع من الإحسان إليهم(٣).

وعندما تشيع روح الرحمة، والتكافل في الأسرة الصغيرة أو الكبيرة تنتشر الألفة، وتتحقق للصحبة دعامة أساسية.

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ١٤ ، ١٥ .
(٣) ينظر تفسير القرطبى ٥٣٠/٨ ، روح المعانى ٧١/٢٦ .

المطلب الثالث
الصحبة العلمية

وهى الصحبة التى تنشأ بين المعلم أو الشيخ وطالب العلم بسبب تلازمهما في تعليم العلم وتعلمه.

ـ ومن أمثلة ذلك صحبة موسى والخضر عليهما السلام قال تعالى: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾[1].

فترتيب موسى انقطاع الصحبة ﴿ فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ على تكرار السؤال يدل على قيام صحبة بينهما.

أما سبب نشوء هذه الصحبة فهو رغبة موسى عليه السلام في التعلم من الخضر عليه السلام كما يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ ﴾[2].

فقد طلب موسى عليه السلام من الخضر أن يأذن له في صحبته فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ "وهو سؤال الملاطف المخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب، ومعناه: هل يتفق لك ويخف عليك"[3] "والاتباع مجاز في المصاحبة"[4].

وأوضح موسى هدفه من وراء هذه المصاحبة بقوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾.

يقول ابن عاشور: "﴿ عَلَىٰٓ ﴾ مستعملة في معنى الاشتراط لأنه استعلاء مجازى جعل الاتباع كأنه مستعمل فوق التعليم لشدة المقارنة بينهما"[5].

ـ ومن نماذج هذه الصحبة صحبة الإمام أحمد بن حنبل للشافعى رضى الله عنهما: "فقد أخذ الإمام أحمد رحمه الله الفقه عن جماعة من أجلهم الإمام الشافعى رحمه الله،

(١) سورة الكهف ، الآية ٧٦ .
(٢) سورة الكهف ، ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) تفسير القرطبى ١٨/٦ بتصرف ط . دار الحديث .
(٤) التحرير والتنوير ٣٦٩/١٥ .
(٥) المرجع السابق ٣٧٠/١٥ .

وصحبه مدة مقامه في بغداد في الرحلة الثانية، وسلك مسلكه، ونهج نهجه، وقال: كل مسألة ليس عندى فيها دليل فأنا أقول بقول الشافعى"[1].

وقد شاع هذا المفهوم حتى أطلق علماء التراجم على التلاميذ لفظ الأصحاب يقول ابن الجوزى عند ترجمة أحمد بن حنبل: "ذكر من حدث عن أحمد على الاطلاق من الشيوخ والأصحاب"[2].

ويقول ابن قاضى شهبة عند ترجمة يوسف بن يحي القرشى أبو يعقوب: "أحد الأعلام من أصحاب الشافعى، وأئمة الإسلام، قال الشافعى: ليس أحد أحق بمجلسى من أبى يعقوب وليس أحد من أصحابى أعلم منه"[3].

(١) طبقات الفقهاء الشافعية لابن قاضى شهبه تقى الدين ، تحقيق د/ علي محمد عمر . ن/ مكتبة الثقافة الدينية .
(٢) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ـ منشورات دار الآفاق ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ .
(٣) طبقات الفقهاء الشافعية ٣٨/١ ، ٣٩ .

المطلب الرابع
الصحبة بمعنى الرفقة

وهى الصحبة الناجمة عن مرافقة الأفراد بعضهم بعضا أيا كان الغرض من المرافقة فى سفر، أو درس، أو صناعة أو عمل... وغير ذلك.

يقول ابن منظور: "رافق الرجل: صاحبه، ورفيقك الذى يرافقك وقال الليث: الرفقة يسمون رفقة ماداموا منضمين في مجلس واحد، ومسير واحد، والرفيق: المرافق، والجمع: رفقاء، فإذا تفرقوا ذهب عنهم اسم الرفقة ولم يذهب اسم الرفيق"(١).

فالرفقة تدل على الصحبة لتلاقيهما على المجالسة والاجتماع إلا أن الصحبة تحتاج إلى طول لبث في حين أن الرفقة لا تتطلب سوى المكث اليسير، لذا كانت الرفقة أدنى درجات الصحبة، والصحبة أعلى الدرجات وأكملها.

وقد وقع في كلام المفسرين تفسير إحداهما بالأخرى لأن تكرار المرافقة يؤدى إلى تكوين الصحبة.

يقول الألوسى في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾(٢). "أى صاحبا"(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾(٤) "والصاحب بالجنب هو الرفيق في السفر أو المنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك، وقيل الرفيق في أمر حسن كتعلم، وتصرف، وصناعة، وسفر، وعدوا من ذلك من قعد بجنبك في مسجد أو مجلس وغير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه"(٥).

ويقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾(٦). "أى له رفقة"(٧).

(١) لسان العرب مادة "ر . ف . ق" .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ .
(٣) روح المعانى للألوسى ٧٨/٥ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٣٦ .
(٥) روح المعانى ٢٩/٥ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية ٧١ .
(٧) التحرير والتنوير ٣٠٢/٧ .

ويقول الرازى في تفسير: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ﴾(١).

"يريد صاحبى في السجن ويحتمل أنه لما حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه، وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا... "(٢).

ويحمل لفظ الرفيق ــ فضلا عن معنى المرافقة ــ معنى الرفق واللين في المعاملة.

يقول الألوسى: "هو مشتق من الرفق وهو لين الجانب واللطافة في المعاشرة قولاً وفعلاً لترافقهما ببعضهما البعض"(٣).

ومن شأن الصحبة القائمة على الرفق واللين وحسن المعاشرة أن تولد المودة التى تنبع منها الصداقة.

فالصداقة: "صدق الاعتقاد في المودة"(٤).

(١) سورة يوسف ، الآية ٤١ .
(٢) مفاتيح الغيب ٥٧/١٧ .
(٣) روح المعانى ٧٨/٥ .
(٤) روح البيان للبروسوى ٧٨٠/٦ .

الفصل الثانى
آداب الصحبة

ويضم خمسة مباحث:

- **المبحث الأول:** أدب النصح الأمين.
- **المبحث الثاني:** أدب أداء الحقوق الأصلية.
- **المبحث الثالث:** أدب التعاون على البر والتقوى.
- **المبحث الرابع:** أدب حسن الخلق.

تمهيد

حث الله سبحانه وتعالى على الإحسان للصاحب فقال عز وجل: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[١].

والإحسان أدب[٢] عام يحترز به عن جميع أنواع الخطأ إذ يدفع إلى إيصال الحقوق في أعلى درجاتها، والتغاضى عن الهفوات، والتقصير في حقوق النفس.

يقول الراغب: "الإحسان أن يعطى أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما هو له"[٣].

ويدخل في المذكورين المشمولين بالأمر بالإحسان إليهم الصاحب.

يقول الطبرى: "يدخل فيه من جنب رجلا بصحبة في سفر أو نكاح أو انقطاع إليه واتصال به"[٤].

والمعيار الذى تعرف به الحقوق والواجبات هو العرف ولذا جعله الله بين الأزواج فقال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[٦]، وحث على الأمر به فقال عز وجل: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[٧].

يقول أبو حيان: "بالمعروف أى بالوجه الذى لا ينكر في الشرع وعادات الناس"[٨].

وتحت هذين الأصلين الأساسين: أدب الإحسان والمعاشرة بالمعروف تندرج كثير من الآداب يمكن تناول أهمها من خلال المباحث التالية:

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٦ .

(٢) الأدب لغة : الظرف وحسن التناول . القاموس المحيط مادة "أدب" . اصطلاحا : معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ . كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد التهاونى ، مادة "أدب" ١/٢٤ ، ٤٥ ، والتعريفات للجرجانى ص٢٩ .

(٣) المفرادات للراغب ص١١٩ .

(٤) تفسير الطبرى ٤/٨٥ .

(٥) سورة النساء ، الآية ١٩ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .

(٧) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٨) البحر المحيط ٢/١٩٠ .

المبحث الأول
أدب النصح الأمين

من حق الصاحب على صاحبه أن يبذل له النصيحة سواء كانت في شأن دنيوى كما نصحت أخت موسى عليه السلام له قال تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾[1].

وكما نصح الرجل له قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[2].

أو تكون النصيحة في أمر دينى كما هو الغالب في نصيحة الأنبياء قال تعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ وَلَٰكِن لَّآ تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[3].

وينبغى أن تتوفر في نصيحة الصاحب عدة أمور:

(١) **أن تكون فيها صلاح المنصوح.**

يقول الراغب: "النصح: تحرى قول أو فعل فيه صلاح صاحبه"[4].

فينبغى أن تحقق النصيحة منفعة حقيقية للمنصوح دون إضرار به، وإلا كانت كنصيحة إبليس لآدم في الجنة قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[5].

فقد دفعهما إلى الأكل من الشجرة بغرور وخداع، فأظهر النصح، وأبطن الغش، وأطمعهما أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين.

(٢) **إخلاص النية في إرادة النفع.**

(١) سورة طه ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة القصص ، الآية ٢٠ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٧٩ .
(٤) المفردات للراغب ص٤٩٤ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية ٢١ .

يقول الرازى: "النصيحة: الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه"[1].

فلا ينبغى للصاحب أن ينصح صاحبه بنصيحة تنفعه في دنياه منفعة وقتية ثم تنقلب عليه ضررًا، أو نصيحة يغلب على ظنه أنها قد تنفعه في جانب، وتضره في آخر أو تنفع الناصح وحده وتضر المنصوح له.

يقول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: "نصحت لكم"[2]: "ويكثر أن يتعدى إلى المفعول بلام زائدة دالة على معنى الاختصاص للدلالة على أن الناصح أراد من نصحه ذات المنصوح لا جلب خير لنفس الناصح، ففى ذلك مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح **مقصودا بها جانبه لاغير** فرب نصيحه ينتفع بها الناصح فيقصد النفعتين جميعا، وربما يقع تفاوت بين المنفعتين فيكون ترجيح نفع الناصح تقصيرًا وإجحافا بنفع المنصوح"[3].

ويدخل تحت النصح الأمين نصيحة الرجل المؤمن لصاحب الجنتين قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾[4].

وقد يحتاج الصاحب إلى أن **يقترن النصح بالوعظ** فيأتى مع نصحه بزجر وتخويف كما في وصيه لقمان عليه السلام لابنه قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

(١) مفاتيح الغيب ١٦٥/١٣ ، التحرير والتنوير ١٩٤/٩ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠٤/٤ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ٧٩ .
(٣) التحرير والتنوير ١٩٤/٩ ، البحر المحيط ٣٢١/٤ .
(٤) سورة الكهف ، الآيات ٣٧ ــ ٣٩ .

إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

وقد حوت نصيحة لقمان لابنه توجيهات دينية واجتماعية وأخلاقية وسلوكية بدافع اصلاح أحواله الدنيوية والأخروية.

ومنها نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾[2].

(١) سورة لقمان ، الآيات ١٣ ــ ١٩ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٤٢ ــ ٤٥ .

المبحث الثانى
أدب أداء الحقوق الأصلية

يختلط الناس ويتصاحبون دون أن يعنى ذلك أن تهدر الصحبة حقا أو تضيع واجبا، بل تحفظ هذه العلاقة الاجتماعية مع ما فيها من تآلف ومودة لكل ذى حق حقه، ولكل صاحب مكانة مكانته..

ــ فلا تعنى صحبة الوالدين أن ينقص الولد من بره بأبويه، بل لهما أن يوفيهما حقهما من البر والإحسان والطاعة بالمعروف، والنفقة إن احتاجا، وتفقد أحوالهما وخدمتهما، ورعايتهما... وغير ذلك.

ــ ولا تعنى صحبة الشيخ العالم الانتقاص من حقه، بل على المتعلم التواضع لمعلمه واحترامه، وتبجيله، والنظر إليه بعين الإكبار، وطاعته في غير معصية، والاستئذان قبل مغادرة مجلسه... وما إلى ذلك.

وهذا مبدأ أصيل علمنا إياه رسول الله ﷺ في الحديث الذى رواه عون بن أبى جحيفه عن أبيه رضى الله عنهم قال: "آخى النبى ﷺ بين سليمان وأبى الدارداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما قال له: كل. قال: فإنى صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن فصلى، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبى ﷺ: "صدق سلمان"[1].

فالجسد والروح يلتقيان في ذات واحد، ومع ذلك لا ينبغى أن يطغى حق أحدهما على حق الآخر ولا أن يعمل لأحدهما ويهدر الآخر، والمرء يحمل نفسه بكل ما فيها من مكونات وينطلق في الحياة فيتعامل مع أهله وأصدقائه وأقاربه، ولا ينبغى أن يطغى حق نفسه على حق من حوله.

يقول ابن حجر تعليقا على الحديث: "فيه جواز النهى عن المستحبات إذا خشى

(١) رواه البخارى في صحيحه : كتاب الصوم . باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ٢٦٠/٤ ، فتح البارى ٢٦٢/٤ ، ومعنى مُتَبَذِّلة : تاركة للبس ثياب الزينة .

أن يؤدى ذلك إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة، الراجح فعلها على المستحب المذكور"[1].

وهذا المبدأ القائم على رعاية الحقوق وحفظها ينطبق على الصحبة، فلا تعنى صحبة الأزواج ضياع الحقوق، وترك الواجبات، بل لكل منهما حق على الآخر كما أوضحت الآية في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ـ ولا تعنى الصحبة الأسرية في معناها الواسع ذهاب الأخلاق وإزالة الحواجز، والاختلاط المفتوح بلا ضوابط بل على كل صاحب أن يحفظ لكل نوع من الصحبة حقها.

وقد قيل: "لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه"[3].

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٦٣/٥ ، تحفة الأحوذى ٦٩/٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .
(٣) إحياء علوم الدين ٢١٣/٥ .

المبحث الثالث
أدب التعاون على البر والتقوى

من حقوق الصحبة أن يتضافر الصاحبان على معونة بعضهما في كل ما يهمهما من شئون دينهم ودنياهم ما لم يكن إثما. قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1].

يقول أبو حيان: وفى هذا أمر بالمساعدة والتضافر على الخير"[2]. وتأخذ هذه الإعانة صورًا شتى:

(١) **إعانة بالمال:** مثلما فعل الأنصار لقضاء حوائج المهاجرين الذين قدموا المدينة مخلفين أموالهم وراءهم في مكة فقاسمهم الأنصار الديار والأموال.
قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].
يقول الرازى: "﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ يؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم"[4].

(٢) **إعانة بالبدن:** كما عاون الصحابة رسول الله ﷺ على نشر الدعوة، وجاهدوا معه ونصروه في الغزوات وابتعثهم على رؤوس السرايا حتى استشهد منهم عدد كبير قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[5].

(٣) **إعانة بالعلم والخبرة:** كأن يكون أحد الصاحبين أكثر علما وخبرة بمسألة، ويعلم أن صاحبه في حاجة إليها ولا يعلمها فيعينه بتعليمه إياها، وإرشاده إليها

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .
(٢) البحر المحيط ٤٢٢/٣ .
(٣) سورة الحشر ، الآية ٩ .
(٤) تفسير الرازى ٤٧٩/٣٠ .
(٥) سورة الحشر ، الآية ٨ .

دون طلب منه وهو إلى باب النصح أقرب[1].

وذلك مثلما فعل سلمان الفارسى ﷺ عندما أشار على النبى ﷺ بحفر الخندق.

وهناك صورة أخرى وهى أن يستشعر المرء بحاجته لأمر لا يعرف كيفية قضائه فيطلب المعونة والمشورة العلمية من صاحبة فيعينه بعلمه وخبرته، وذلك مثل طلب أهل ما بين السدين من ذى القرنين[2] معونته على بناء السد. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾[3]. فقد كان لسكان هذا المكان المال فقالوا: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ والقوة البشرية ولهذا قال لهم: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾. "أى ما يتقوى به على المقصود من الناس أو الالات أو الأعم منهما، ويختص في الاستعمال بمن يعمل بأجره أو نحوها في البناء"[4].

ولكن كان ينقصهم الفهم والعلم قال تعالى: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[5].

(٤) **الإعانة بالجاه:** كأن يكون لأحد الصاحبين من المنعة والحسب ما يمكنه من قضاء حاجة أخيه، وستر عورته، وسد خلته ونصرته على عدوه، ودفع المكروه والأذى عنه.

كما أجار مطعم بن عدى[6] رسول الله ﷺ ليدخل مكة: "وذلك عندما خرج ﷺ إلى الطائف ثم أراد أن يرجع إلى مكة فأرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بن

(١) تقدم الحديث عن معنى النصح في الأدب الأول .

(٢) هذا مثال لنفع الآخرين بالعلم وليس خاصا بالصاحب لأن ذا القرنين ليس صاحبهم وإنما كان مارًا ببلدهم .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٩٤ .

(٤) حاشية الشهاب علي البيضاوى ٦/٢٣٤ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ٩٣ .

(٦) المطعم بن عدى : هو المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف من قريش ، رئيس بنى نوفل في الجاهلية وقائدهم في حرب الفجار وأحد الذين مزقوا الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وعمى في كبره ومات قبل بدر ، الإعلام للزركلى ٧/٢٥٢ .

عدى: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم ودعا بنيه وقومه، فقال: ألبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإنى قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ﷺ حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم ببن عدى على رجليه فنادى: يا معشر قريش إنى قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى البيت، والمطعم بن عدى وولده محدقون بالسلاح حتى دخل بيته"[1].

(١) سيرة خير العباد لابن قيم الجوزية ص٤٣ إعداد صالح أحمد الشامى ــ المكتب الإسلامى .

المبحث الرابع
أدب حسن الخلق

من أدب الصحبة أن يحسن الصاحب خلقه مع صاحبه.

والخلق: سجية تسهل على الصاحب الاتيان بالأفعال الجميلة[1] في معاملاته لصاحبه، فيصدقه حديثه، ويحفظ سره، ويوفى بوعده معه، ويكرمه بماله، ويسد ثغرته، ويستر عيبه، ويفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ولا يحسده، ولا يحقد عليه، إن لقى منه خيرا شكر، وإن لقى منه إساءة صبر وحلم، والتمس له عذرا متخذا من رسول الله ﷺ أسوة وقدوة فلقد مدحه ربه قائلا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

يقول ابن عاشور: "الخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبى ﷺ، فهو حسن في معاملته.

ألوان من الخلق الحسن:

الناس على اختلاف الأحوال المقتضيه لحسن المعاملة... واعلم أن جماع الخلق العظيم الذى هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجود، والحياء، والشجاعة، وحسن السمت، والتودة، والوقار والرحمة، وحسن المعاملة، والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه وطلاقه وجهه وثباته، وحكمه، وحركاته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة"[3].

وظهر هذا الخلق الجميل في صحبة موسى والخضر عليهما السلام فابتدأ موسى صحبته معه بالاستئذان ولم يفرض عليه نفسه لكونه نبى الله.

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب ٦٤٩/٣٠ بتصرف .

(٢) سورة القلم ، الآية ٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٦٤/٢٩ ، ٦٥ .

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

فسأله سؤال تلطف وتأدب واستئذان: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾.

وعندما خالف ما اتفقا عليه من عدم السؤال: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[2] اعتذر له: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾[3].

وعندما كرر السؤال أدرك من نفسه التقصير: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾[4].

وفى المقابل تحمل الخضر موسى في عدم صبره على ترك السؤال ولم يقطع صحبته من أول مرة حتى كان موسى المبادر إلى قطع الصحبة استحياء منه وأدبًا.

ووعى صحابة رسول الله ﷺ هذا الأدب فجعلوه سلوكا التزموه بينهم.

فعن عامر بن ربيعة قال: كان مصعب بن عمير ﷺ لى خلا وصاحبا منذ أسلم حتى قتل رحمه الله بأحد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعا بأرض الحبشة وكان رفيقى من بين القوم فلم أر رجلا قط كان أحسن خلقا ولا أقل خلافا منه"[5].

وعن رباح بن الربيع ﷺ قال: غزونا مع النبى ﷺ وكان قد أعطى كل ثلاثة منا بعيرًا يركبه اثنان ويسوقه واحد في الصحارى، وننزل في الجبال.

فمر بى رسول الله ﷺ وأنا أمشى فقال لى: أراك يا رباح ماشيا.

فقلت: إنما نزلت الساعة وهذان صاحباى قد ركبا، فمر بصاحبى فأناخا بعيرهما ونزلا عنه.

فلما انتهيت قالا: اركب صدر هذا البعير فلا تزال عليه حتى ترجع، ونعتقب أنا وصاحبى.

قلت: ولم؟

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٦٦ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٧٠ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٧٣ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٧٦ .

(٥) حياة للصحابة لمحمد يوسف للكاند هلوى ٥٣١/٢٠ ن/ مكتبة الدعوة الإسلامية . جامعة الأزهر .

قالا: قال لنا رسول الله ﷺ: إن لكما رفيقا صالحا فأحسنا صحبته"[1].

طيب الكلام:

تحتاج الصحبة بما تمثله من علاقة اجتماعية إلى الحديث بين المتصاحبين بما يديم الود، ويوطد العشرة، ويولد الألفة، ويزيل الفجوات، والحواجز النفسية، ويسهم في تثبيت العلاقة وتوطيدها.

وقد وضع النبى ﷺ قاعدة عامة يدور عليها أدب الحديث بين الناس عموما ويدخل فيها الأصحاب. فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[2].

يقول ابن حجر: "من كان حامل الإيمان، فهو متصف بالشفقة على خلق الله قولا بالخير، وسكوتا عن الشر، وفعلا لما ينفع، أو تركا لما يضر"[3].

ـ ويدخل في الخير طيب الكلام الذى تتنوع أطيافه بين الذب عن عرض الصاحب، ومواساته في الشدائد، وترك السباب والفظاظة إلى التلطف معه، ومداعبته، والثناء عليه بما يحمله من خير.

يقول الإمام الغزالى: "إن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره تقتضى أيضا النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص من أذاهم.

والسكوت معناه: كف الأذى فعليه أن يتودد إلى صاحبه بلسانه ويتفقده في أحواله التى يجب أن يتفقد فيها، كالسؤال عن عارض إن عرض، وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التى يكرهها فينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهيتها، وجملة أحواله التى يسر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له في

(١) حياة الصحابة ٤٧٣/٢ .

(٢) رواه البخارى في صحيحه : كتاب الأدب . باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٥٠٧/١٠ ، فتح البارى .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥٠٨/١٠ .

السرور بها[1].

ـ ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره، ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته.

وقد ظهر طيب كلامه ﷺ في تعامله مع أصحابه رضوان الله عليهم من ذلك ما أخبر الله به عن مواساته لصاحبه أبى بكر في غار "حراء".

قال تعالى: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

كما أثنى ﷺ على أصحابه بما يعلم من جميل خصالهم، ومن ذلك ثنائه على عمر بن الخطاب ﷺ بقوله: "إيه يا ابن الخطاب، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك"[3].

والضابط في الثناء أن لا يكون في المدح مجازفة، وأن يؤمن على الممدوح الإعجاب والفتنة"[4].

ـ ومن طيب الكلام بين الأصحاب الانبساط والدعابة: "وذلك بالملاطفة في القول والمزاح بلا مبالغة فذلك يفضى إلى قسوة القلب والإيذاء والحقد وسقوط المهابة والوقار"[5].

وقد داعب النبى ﷺ صحابته. فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "إن كان النبى ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير: يا أبا عمير، ما فعل النغير"[6].

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ١٦٤/٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

(٣) رواه البخارى في صحيحه : كتاب الأدب . باب التبسم والضحك ٥٧٣/١٠ .

(٤) فتح البارى ٥٤٥/١٠ .

(٥) المرجع السابق ٦٠١/١٠ .

(٦) رواه البخارى في صحيحه : كتاب الأدب . باب الانبساط إلى الناس ٦٠١/١٠ . والنغير بالتصغير هو طائر يشبه العصفور قيل : أحمر المنقار ، فتح البارى ١٩٧/١ .

ووقفت السيدة خديجة رضى الله عنها تشد من عضد زوجها وصاحبها رسول الله ﷺ عندما جاءها مرتعدا من غار حراء وأسمعته من القول ثناءً يهدئ من روعه.

ــ ومن أجمل ما يوجز أدب الصحبة قول علقمة العطاردى ﷺ: "يا بنى إذا عرضت لك على صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك فاقة أعانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سكت ابتدأك وإن نزلت بك نازلة واساك، واصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمَّرك، وإن تنازعتما شيئا آثرك"(١).

وهذا الحق والأدب الذى يؤديه الصاحب لصاحبه يحمل من البراهين والعلامات ما يدل على صدق إيمان هذا الصاحب.

يقول الغزالى: "إن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق، ولذلك قال ﷺ": "أباهر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا"(٢).

فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة، والإسلام جزاء الجوار، فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة.

فإن الصحبة تقتضى حقوقا كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام، والجوار لا يقتضى إلا حقوقا قريبه في أوقات متباعدة لا تدوم"(٣).

(١) إحياء علوم الدين ٢/١٥٦ .

(٢) قال الحافظ العراقى : "أخرجه الترمذى وابن ماجه ، واللفظ الأول له من حديث أبى هريرة بالشطر الأول فقط ، وقال الترمذى "مؤمنا" قال : "وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما" ، وقال ابن ماجه "مؤمنا" قال الدارقطنى : والحديث ثابت ورواه القضاعى في مسند الشهاب بلفظ المصنف تخريج أحاديث الإحياء للعراقى ٤/٣١٠ .

(٣) الإحياء للغزالى ٢/١٦٥ .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى أصحابه الأخيار الأطهار.

فقد تناولت في هذا البحث الصحبة وأدبها، وانتهيت فيه إلى عدة نتائج أهمها ما يلى:

(١) أن الصحبة الحقيقة هى التى تجمع بين طول الملازمة والمجالسة من جانب، والمؤانسة والموافقة وامتداد العشرة من جانب آخر.

(٢) أن الصحبة تتأثر في نشأتها واستمرارها بعاملى المكان، والعمل (وجود هدف مشترك) ونمو هذه العلاقة أو ذبولها يعتمد على مدى حرص الصاحبين على الحفاظ على ديمومة الاتصال في هذين الجانبين أو عدمه.

(٣) إن قرناء السوء الذين يصعب التخلص منهم وقطع العلاقة معهم يمكن تخفيف تأثيرهم من خلال تقليل المخالطة والملاقاة.

(٤) أن الصاحب الحسن الذى توفرت فيه صفات العقل، سلامة العقيدة، استقامة السلوك هو الذى ينبغى المحافظة على التواصل معه في المكان والعمل والحرص على مودته.

(٥) أن أقوى درجات الصحبة وأدومها ما تلاقت فيه الأهداف والغايات على رضا الله عز وجل كما تمثل في صحبة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ويمكن الاستفادة من ذلك في تقوية علاقات الصحبة من خلال الاجتماع على طاعة الله التى تتعدد صورها وأشكالها بما يتيح لكل صحبة أن تختار ما يلائمها.

(٦) أن قصر العلاقات داخل الأسرة على مجرد الالتقاء والمجالسة دون تفعيل هذه العلاقة بإيجاد أهداف مشتركه وأوقات محددة للالتقاء، والترفية، والنقاش في الأمور المهمة للأسرة كفيل بالقضاء على روح الصحبة داخلها.

(٧) أن الصحبة وإن كانت علاقة إنسانية تتسم في عمومها بالتبسط وإزالة الكلفة إلا أنها ذات آداب تحافظ عليها، وتؤدم الود بين الأصحاب، ومن أبرزها: النصح الأمين، وأداء الحقوق الأصلية، والتعاون على الخير، وحسن الخلق.

وأخـــيرًا:

فهذا جهد المقل، فإن كنت قد أصبت فمن الله، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى حاولت، والله أسأل أن يجعله عملا نافعا، وأن يعفو عن زلتى ويتجاوز عن خطئى.

آمـــين

مراجع البحث

أولاً: كتب التفسير وعلوم القرآن:

- الاتقان فى علوم القرآن للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت ٩١١، حققه فواز أحمد زملى ط/ دار الكتاب العربى، بيروت ــ لبنان.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ت ٩٨٢هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- البحر المحيط لأبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ط/ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ــ الرياض.
- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب الغزيز لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، المكتبة العلمية ــ بيروت ــ المفرادات في غريب القرآن للراغب، تحقيق محمد سيد كيلانى دار المعرفة بيروت.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون للنشر والتوزيع ــ تونس.
- تفسير المنار المعروف بتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني ت ١٣٥٤هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م.
- الجامع لأحكام القرآن الجامع لأحكام القرآن لأبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ط/ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٧ الطبعة الثالثة.
- روح البيان للشيخ إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء ت ١١٢٧هـ، دار الفكر – بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ت ١٢٧٠هـ، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
- زاد المسير في علم التفسير للإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن

محمد الجوزي ، دار الفكر.

- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والداريه من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ت ١٢٥٠، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة.
- اللباب فى علوم الكتاب لأبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ت٨٨٠هـ، منشورات محمد علي بيضون، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق عبد السلام عبد الشافى، ط/ محمد على بيضون، دار الكتب العلمية ط. الأولى ٢٠٠١م.
- مفاتيح الغيب لأبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مكتبة الإيمان المنصورة، ط/ دار الغد الغربى الطبعة الأولى ١٤١٣ ـ ١٩٩٢م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، الطبعة الأولى ١٩٧٦ دائرة المعارف العثمانية.
- النكت والعيون المعروف بتفسير لأبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تصنيف السيد عبد المقصود الماوردى ت ٤٥٠هـ، دار الكتب العلمية.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ت ٤٦٨هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد دار الكتب العلمية.

ثانيًا: كتب الحديث وعلومه:

- تحفه الأحوذى شرح جامع الترمذى لأبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى ت ١٣٥٣هـ، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية.
- سنن أبى داود صنفه وجمعه الإمام الحافظ الاشعث السجستانى وبهامشه عون المعبود شرح سنن أبى داود للعلامة أبى الطيب محمد شمس الحق المكتبة السلفية

ـ المدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

- سنن الترمذى أو الجامع الصحيح لأبى عيسى محمد بن عيسى ت ٢٧٩هـ، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
- صحيح البخارى شرح فتح البارى لأحمد بن علي بن حجر العسقلانى ٧٧٣ ـ ٨٥٢، رقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقى، قام بإخراجه محب الدين الخطيب، دار المعرفة ـ بيروت.
- صحيح مسلم بشرح الإمام محى الدين النووى ت ٦٧٦، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة العاشرة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

ثالثًا: كتب السير والتراجم:

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب لأبى عمرو يوسف بن عبد الله بن عبد البر تحقيق علي محمد البحاوى ت ١٤٠٥ ط. مكتبة نهضة مصر.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبى الحسن علي بن محمد الجزرى، صححها الشيخ عادل أحمد الرفاعى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ـ لبنان.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ط. مصطفى محمد. مصر ط/ المكتبة التجارية.
- الأعلام قاموسى تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.
- حياة للصحابة لمحمد يوسف للكاند هلوى، ط/ مكتبة الدعوة الإسلامية. جامعة الأزهر.
- زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية، إعداد صالح أحمد الشامى ـ المكتب الإسلامى.
- السيرة النبوية لابن هشام ت ٢١٣ قدم لها طه عبد الرءوف سعد. مكتبة الكليات الأزهرية.
- طبقات الفقهاء الشافعية لابن قاضى شهبه تقى الدين، تحقيق د/ علي محمد عمر، ط/ مكتبة الثقافة الدينية.

- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى، دار الكتب الحديثة.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ــ منشورات دار الآفاق، الطبعة الثالثة ١٤٠٢ ــ ١٩٨٢.

ثالثًا: كتب اللغة:

- أساس البلاغة للزمخشرى، تقديم: د/ محمود حجازى اصدار الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجانى ت ٨٤٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.
- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى، تحقيق حسام الدين القدسى، ط. دار الكتب العلمية.
- القاموس المحيط للفيروز آبادى، ط/ مؤسسة الحلبى.
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى ت ٧١١، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين، ط. دار المعارف.
- معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ت ٣٩٥هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصارى، دار أحياء الكتب الغربية، الاتقان في علوم القرآن للسيوطى.
- المنجد في اللغة والآداب والعلوم، المطبعة الكاثولوكية، بيروت.

رابعًا: كتب أخرى:

- إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى ت (٥٠٥)، ط. دار القلم ــ بيروت.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم الجوزية، راجعة وعلق عليه محمد الأنور البلتاجى، ط/ دار التراث العربى.
- خطابنا الإسلامى في عصر العولمة لـ د/ يوسف القرضاوى، دار الشروق.
- دليل تدريب الآباء في تربية الأبناء. د/ مأمون مبيض اختصاصى الطب النفسى، المكتب الإسلامى.

- العادات السبع للأسر الأكثر فاعليه "ستيفن كوفى"، مكتبة جرير.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتاب العبى ــ بيروت.

فهرس البحث

مقدمة البحث ١١
الفصل الأول: التعريف بالصحبة ١٦
المبحث الأول: تعريف لفظ الصحبة وما يقاربها من ألفاظ ١٧
المطلب الأول: تعريف الصحبة في اللغة وأقوال المفسرين ١٨
المطلب الثاني: الألفاظ المقاربة للصحبة ٢٠
المطلب الثالث: التعريف الجامع للصحبة ٣٤
المبحث الثاني: عوامل نشأة الصحبة ٣٦
المطلب الأول: الالتقاء والملازمة في المكان ٣٦
المطلب الثاني: الاشتراك في العمل ٤٠
المطلب الثالث: علاقة القرابة ٤٣
المبحث الثالث: أسس اختيار الصاحب الصالح ٤٥
المطلب الأول: العقل ٤٦
المطلب الثاني: سلامة العقيدة الإيمان ٥٢
المطلب الثالث: استقامة السلوك ٥٩
المطلب الرابع: أسس الاختيار في الميزان ٦١
المبحث الرابع: صور الصحبة في القرآن الكريم ٦٣
المطلب الأول: صحبة الأنبياء ٦٣
المطلب الثاني: آداب الصحبة ٧١
المطلب الثالث: الصحبة العلمية ٨٢
المطلب الرابع: الصحبة بمعنى الرفقة ٨٤
الفصل الثاني: آداب الصحبة ٨٧
تمهيد ٨٨
المبحث الأول: أدب النصح الأمين ٩١
المبحث الثاني: أدب أداء الحقوق الأصلية ٩٣
المبحث الثالث: أدب التعاون على البر والتقوى ٩٦
المبحث الرابع: أدب حسن الخلق ١٠١
الخاتمة ١٠٣
مراجع البحث .....